
54
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
فانتازيا
Looloo
www.dvd4arab.com
عبقرى
آخر

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أوالقوة أو البراعة أوالذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البدهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ؛ لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا فى رحلتها .. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ـ ونحن معها ـ العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ....

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ...
والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ...
وأسمعت كلماتى من به صممُ

1ـ إلـى الفـــرار..

« ما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونـا ، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحـوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء » .

طـه حسين

* * *

قالت له (عبير) :

ـ « ثلاث زوجات .. ثـلاث حـالات طـلاق .. لا تقل لـى إنهن جميعًا سيئات .. كانت هناك فرصـة 30٪ أن تكون واحـدة منهن رائعة ، ولكن عجزك عن العثور على زوجة مناسبة يدل بلا شـك على إنك مضطرب .. اغفر لى تبسطى لكن هذه هى الحقيقة » .

تحسس الكدمة على وجنته اليسرى ، ثـم قـال لهـا وهـو يقلب الشفاط فى كوب العصير :

ـ « هناك أشخاص سيئو الحظ إلى درجة لا توصف .. »

ـ « وهناك أشخاص مضطربون نفسيًا إلى درجة لا تصدق .. »

ـ « كلنا نخطئ .. لكن الرجل الذكى هو من يصحح أخطاءه .. »

- « والرجل الأذكى هو الذى يعرف متى تكون الأخطاء عصية على التصحيح .. »

ضحك طويلاً وضاقت عيناه من خلف نظارته السوداء .. هى تراها بوضوح من خلف الزجاج الأسود .. ما زال الوغد وسيمًا .. قال لها :

- « هل تعرفين ما أشعر به ؟.. كأنها مباراة (اسكواش) .. أنت تردين ببراعة كراتى وتحاولين أن تسحقينى .. كلما قلت شيئًا وجدت لى ردًا مسكتًا .. »

امتصت بعض العصير .. عندما نكون قلقين أو مشغولى البال نشعر بأن ما يدخل الفم حمض كبريتيك مركز .. سمعت أمعاءها تحتج غضبًا ، لكنها أخرستها .. اشربى يا بلهاء .. اشربى .. يجب أن تعرفى من القائد هنا ..

ثم قالت :

- « أنا لا أبحث عن الردود المسكتة .. لكنها تتدافع على لسانى .. هناك دم يسيل من طاقة أنفك اليسرى .. »

أخرج منديلاً ضغطه على أنفه ، بينما تحسست هى شعرها من تحت الحجاب الذى وضعته منذ عام ، وقالت :

ـ « نحن نشيخ .. ألا تفهم هذا ؟.. إننى أتقدم فى العمر .. أمس وجدت شعرة بيضاء ، برغم صغر سنى .. كلما شابت شعرة احترق جزء من سذاجتنا .. لهذا (عبير) التى تعرفها تغيرت جدًّا .. »

ثم قالت كأنها تبصق :

ـ « لا تستطيع التخلى عن زوجتك بهذه البساطة كأنها عقب لفافة تبغ ، ثم تتوقع أن تعود لها لتجدها تنتظرك فى مرح مشرقة الوجه .. »

ـ « لم أتوقع هذا .. توقعت عاصفة من الغضب والضيق ، لكنى توقعت أن أجتازها لأبلغ تلك الجزيرة .. قبلك .. لكن كما يقول المتنبى على ما أظن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ابتسمت .. هذه التعبيرات تبدو لها سخيفة .. ثمة نوع من افتعال الشاعرية هنا . على كل حال لم يكن شريف واسع الثقافة .. إنه شديد الذكاء عبقرى فى الكمبيوتر ، لكنها بالتأكيد قرأت أضعاف ما قرأه فى الأدب ..

لاحظ أنها ابتسمتْ ، فخمّن على الفور ما تفكر فيه :

ـ « ما ذنبى إذا كان الشخص الوحيد الذى فهمنى واستجاب لى هو جهاز الكمبيوتر ؟.. إنه عبد مطيع لى يقرأ أفكارى وينفذها قبل أن أطلب .. أعتقد أن لدى بدلاً من القلب وحدة معالجة مركزية CPU .. »

رفعت كوب الليمون تحييه ، وهتفت :

ـ « الآن فهمت !! »

* * *

لماذا قبلت أن تقابله ؟

كانت تعرف أنه يحوم كثيرًا حول المنطقة ، وقد صارت سيارته المميزة من معالم الشارع. تجاهلته لفترة لا بأس بها ، حتى فوجئت به يقفو أثرها بذات سرعتها فى المشى .. يطل من النافذة ويتوسل لها أن تركب .. يجب أن يقول لها بضع كلمات ..

لا ترد .. يواصل القيادة .. يتكلم ..

ـ « ربما من حقك أن تغضبى ، لكن المرء لا يلفظ حياة كاملة بهذه السهولة .. »

ـ « هناك من فعل هذا بسهولة تامة .. هل تذكره ؟ »

ـ « ربما لو ركبت لاستطعت أن أفسر نفسى .. إن ... »

طـــــاااخ !

كان يقود سيارته على يمين الطريق ملاصقًا للإفريز تمامًا ، وقد انهمك فى الكلام فلا يعرف كيف ارتطم فى مؤخرة سيارة واقفة .. ارتطم بقوة وعنف فلابد أن مقدمة سيارته تلفت تمامًا .. وسرعان

ما وثب الرجل من مقعد القيادة .. نعم .. لابد أن يكون ضخمًا فظًّا كالكوابيس .. أنت لا تصدم سيارة رجل وديع ضئيل أبدًا لو أردت رأيى ..

هكذا وقفت على الإفريز تراقب فى ذعر (شريف) وهو يعامل كخرقة من القماش .. يحاول أن يتكلم بعقلانية، بينما الرجل الذى ارتطم بسيارته يمسك بياقة سترته ويطوح به فى كل اتجاه .. هذا رجل لا يريد تعويضًا أو مالاً .. لا يريد سوى الدم ليهدئ من أعصابه ..

كان شريف يتلقى اللكمات والمارة قد احتشدوا، عندما صاحت برغمها :

- « اسمع .. سأذهب معك بضع دقائق ! »

- « جميـ .. .. يـ .. يـ .. ل ! »

قالها قبل أن يتلقى لكمة ألقت به فوق كبود سيارته المهشم .. فى الحقيقة بدا كأنه يقول للرجل : هلم انته من الضرب بسرعة فأنا مشغول ..

وقد انتهى الرجل بسرعة فعلاً .. وجه ثلاث لكمات ثم ركب سيارته وهو يسب ويلعن ..

اتجه نحوها شريف كأنه لم يمر بعلقة ساخنة منذ ثوان ، وأدار محرك السيارة .. كشىء تعمل لحسن الحظ .. فتح لها الباب المجاور له ، فجلست ...

وانطلق بسيارته نحو تلك الكافتيريا ..

* * *

قالت لأمها :

ـ « شريف يبغى العودة لى .. »

كان هذا بالنسبة للأم أجمل من أن يصدق .. سوف تتخلص من عبير وابنتها ومشاكلهما بضربة واحدة .. لن تعود ابنتها مطلقة بل زوجة فى دار زوجها .. هى تحب (عبير) فعلاً ، لكنها ترى أن المرأة مخلوق لا غرض من مجيئه للدنيا سوى الزواج والإنجاب .. ما عدا هذا يعد تحديًا للحكمة من وجوده ..

كانت عبير عبئًا .. قبيحة فقيرة ولديها طفل .. من الصعب أن تجد زوجًا آخر. خلافاتها مع أخيها لا تنتهى .. عودة شريف فرصة ذهبية لا يجب أن تتخلى عنها بأى ثمن ..

هكذا ألحت عليها الأم فى القبول ..

قالت عبير إنها تقريبًا قد قطعت الجسور بينها وبينه .. لقد قالت لا شبه حاسمة ..

هنا تلقت لكمة فى صدرها من أمها .. لكمة مفاجئة لم تتلق عبير مثلها منذ عشر سنوات ..

وقبل أن تندهش انفجرت العجوز فى البكاء .. جالسة على كرسى المطبخ الواطىء دفنت وجهها بين كفيها وراحت تبكى .. تمثال معاصر هو تقليد بائس لتمثال (المفكر) لرودان ..

(عبير) هى الأخرى شعرت بأن الصنبور فى عينيها وأنفها انفتح ولا شىء يوقفه .. كانت تبكى بسبب بكاء أمها ولا تبكى بسبب اللكمة .. أقسى شىء فى الكون أن نبكى أهلنا وهم فى هذه السن ..

أما الأسوأ فهو طفلتها التى رأت كل شىء فانفجرت تبكى بدورها .. ثلاثى من الباكيات يذكرك بالمسرح الإغريقى فلا ينقصهن سوى جوقة تنشد أشعار سوفوكليس..

لم تنتظر طويلاً ، وركضت باكية نحو حجرتها ..

أغلقت الباب .. هرعت نحو جهاز الكمبيوتر النقال الذى أعطاه إياها شريف . جلست على الفراش وثبتت الأقطاب على رأسها ..

هى بحاجة إلى الهرب .. بحاجة للنسيان ..

هى بحاجة إلى فانتازيا ...

قبل أن تغيب راح بيت الشعر يتردد فى ذهنها :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

2ـ سيف الدولة ..

هناك كان المرشد واقفًا جوار جدار ينتظرها ، ويـده فـى جيبـه بينما هو يضغط سوستة القلم بلا توقف .. تـك .. تـك .. تتك .. تـك .. تتك .. لسبب ما يعتقد هذا الرجل أنه ساعة حائط ...

البذلة السوداء ونظرة اللامبالاة والأناقة العامة البـاردة ، كأنـه يلعب دورًا فى فيلم (رجـال بثيـاب سود). مهمـا كـانت حزينـة أو مكتئبة أو منهارة أو سعيدة محلقة ، فهو يرمقها بذات اللامبالاة مـع لمسـة مـن السـخرية .. شـخص لا يطـاق ولـولا أنـه مفتـاح فانتازيا الوحيد لتخلصت منه أو قتلته ..

ـ « تأخرت يا أليس .. أنباء سيئة هذه المرة .. »

قالت وهى تمسك بساعده كأنه خطيبها :

ـ « صراع (دنو ضـد تجنب) .. أريـد الشىء وأمقته فـى ذات الوقـت .. أنـت تفهـم هـذه الأمـور وأكـون شـاكرة لـو كففـت عـن التدخل فى شئونى الخاصة .. »

قال فى دهشة :

ـ « أنا لسـت شـخصًا غريبًـا أو عـابر سبيل .. أنـا جـزء مـن عقلك الباطن .. أنت صنعتنى .. »

ـ « ونادمة على ذلك .. هلم .. ألا تعرف أن المرء قد يخفى أدق الأسرار عن نفسه ؟.. لقد كانت لنا مغامرة شنيعة مع علماء النفس .. ألم تتعلم شيئًا ؟ »

ـ « بلى .. تعلمت أنك مجنونة تقريبًا .. والآن إلى أين مغامرة اليوم ؟ »

فكرت حينًا ونظرت إلى قطار فانتازيا المضحك الذى يتصاعد منه الدخان ، وهو يهتز ويزأر ويوشك على الوثب من مكانه .. قطار حى تمامًا ككل قطارات ديزنى ..

قالت له :

ـ « المغامرات ذات الطابع التاريخى .. إنها غالبًا مفيدة إن لم تكن ممتعة .. »

هز رأسه فاهمًا ، وقال :

ـ « آه .. ألعاب تاريخية .. تحبين هذا الجزء .. من الجميل أن يثرثر المرء مع بونابرت أو محمد على .. لِمَ لا ؟.. هل ترغبين فى فترة زمنية معينة ؟ »

حكَت شعرها ، ثم قالت :

ـ « أمس كنت أقرأ أشعارًا للمتنبى .. لم أفهم بالضبط ما يقول ، لكن شعره بدا لى رائعًا ، ويخيل لى أنه أكثر شاعر استعمل شعره فى الأقوال المأثورة والأمثال .. »

ـ « هو و(أحمد شوقى) .. أعتقد أن هذا صحيح .. كم من مرة استعملت بيت الشعر (دقات قلب المرء قائلة له .. إن الحياة دقائق وثوان) لشوقى ؟.. أو (ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام) للمتنبى ؟.. بالنسبة للمتنبى أنت تتكلمين عن 326 قصيدة من عيون الشعر العربى .. »

ـ « إذن لماذا لا نجرب ؟ »

ـ « حقًا لماذا ؟.. إن حياة الرجل صاخبة وهناك قدر كبير من الغموض يحوم حوله .. أعتقد أنه يمنحنا مغامرة لا بأس بها .. لكنى أنذرك .. سوف نستعمل الاستشهاد بالشعر كثيرًا جدًا » ..

ـ « أنا أمقت كثرة الشعر .. القليل منه جيد لكن لا تفرط فيه .. تذكرنى بعمر الخيام عندما كان ينشد رباعية كلما مرت خمس دقائق .. »

ـ « لا يمكن أن أتكلم عن المتنبى بلا شعر .. سيكون هذا كوصف الآيس كريم دون أن أسمح لك بتذوقه .. »

قالت فى قنوط :

ـ « ليكن .. قل شعرًا لكن لا تفرط فيه .. »

تدخل معه حلب فى القرن الرابع الهجرى .. هذه الأجواء مألوفة ، ورأتها أكثر من مرة ..

أشار المرشد ـ كأنه تحول إلى مرشد سياحى فجأة ـ إلى بيت صغير عتيق الطراز ، وقال :

ـ « هنا كان يعيش أشعر شعراء العرب .. خلف خان الوزير فى حلب .. هناك باحث وجد هذا الموقع فى العصر الحديث ، والحكومة السورية قررت أن تحوله إلى متحف يحمل اسم المتنبى .. لكنك لن تبدئى المغامرة هنا .. سوف تذهبين إلى بلاط (سيف الدولة الحمدانى) .. »

وقبل أن تسأل أسئلة أخرى كان قد اختفى ..

* * *

يستوقفها الحراس على الباب فتبرز تحقيق الشخصية الذى يثبت أنها صحفية ..

كارنيه الصحافة .. يخترق كل الأبواب الموصدة أو من المفترض أن يفعل ذلك .. حتى بلاط سيف الدولة. عرفت على الفور أنها صحفية كما اعتادت فى فانتازيا ، والأهم أنها صحفية عبر الأزمان ..

ثياب الحراس الذين يسدون طريقها بالرماح المتقاطعة تشى بأنهم من العصر الأموى أو العباسى أو شىء من هذا القبيل ..

تعرف أنها تجتاز مدخل بلاط سيف الدولة بن حمدان حاكم (حلب) .. لكنها لا تعرف تفاصيل أخرى ..

هناك فى صدر القاعة كان جالسًا .. من الواضح تمامًا أنه ملك أو أمير .. له تلك الملامح الهادئة الموحية بالثقة .. ملامح رجل مطمئن إلى قوته وثروته وكرم محتده .. هذا رجل بلا عقد تقريبًا .. وسيم على شفتيه بسمة هادئة خافتة من تلك البسمات التى تدل على قوة مفرطة ..

لكنه لم يكن يتكلم ..

كان هناك عشرات الرجال من حوله يفترشون ما يبدو كمجلس عربى .. وكانوا يتجادلون بقوة .. فقط لاحظ أحدهم وجودها بثيابها العصرية فساد الصمت ، ونظر لها الجميع بفضول ..

قال أحد الحراس بسرعة :

ـ « صحفية يا مولاى ! »

كأن لفظة صحفية مألوفة فى هذا العصر ..

ضحكت (عبير) كاشفة عن أسنانها ولوحَت بجهاز التسجيل ، ثم أخرجت الكاميرا الرقمية الصغيرة من حقيبتها ، والتقطت صورة للجالسين .. صورة لا قيمة لها طبعًا لأن كل من يراها فى

عصرنا سيحسب أنها التقطت فى مدينة الإنتاج الإعلامى .. فقط لا يلبس أى من الجالسين ساعة رقمية ولا يستعمل الهاتف المحمول .. ربما كان هذا دليلاً على أصالة الصورة ..

بدا أن الملك أو الأمير لا وقت عنده للصحافة ، لذا أشار لها كى تجلس فى نفاد صبر ، ثم راح يتابع المحادثة المحتدمة بين اثنين من الجالسين ..

الأول كان عجوزًا وقورًا أشيب اللحية يتكلم بتؤده وثقة ، والثانى كان أقرب للشباب .. وكان عصبيًا نافد الصبر لا يثبت على وضع فى جلسته ..

يبدو أنهما كانا يتناقشان فى قضية نحوية صعبة ..

وتذكرت باسمة أجواء (سيبويه) و(الخليل بن أحمد) .. ومعركة (سيبويه) النحوية مع (الكسائى) .. يبدو أن المصارعات النحوية كانت تسلية شائعة فى ذلك العصر ..

مالت على رجل يجلس جوارها ، وسألته همسًا :

ـ « بس س !.. من الرجلان بعد إذنك ؟ »

نظر لها فى غيظ وهمس :

ـ « أنا أصغى ولا وقت للأسئلة السخيفة .. »

ـ « أعدك أن أخرس بعدها .. فقط من هما ؟.. أريد أن أتابع .. »

قال بذلك الهمس الذى يذكرك بالفحيح :

ـ « الشيخ هو (ابن خالويه). .. العالم البغدادى صاحب كتب (الجمل فى النحو) و(كتاب الأسد) و(إعراب ثلاثين سورة من القرآن) .. الرجل هو (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى) .. »

ـ « فهمت .. فهمت .. لقد شخت عما كنت عندما وجهت السؤال .. »

ـ « وهو جرىء جدًا كى يتحدى (ابن خالويه) فى النحو .. »

لم تعرف من هو صاحب ذلك الاسم الطويل ، لكنها أدركت أنه يلعب دور من يتحدى (رونالدنيو) فى تسديد الأهداف ، أو يتحدى (بروس لى) فى الكونج فو ..

هنا تعالى صوت الرجل الأصغر سنًا يقول فى تحدٍّ :

ـ « أكرر .. رأيك خطأ خال من أى صواب ..! »

كان هذا الأسلوب يفوق ما يمكن أن يقبله الشيخ ، مهما بدا عليه من سماحة وسعة أفق .. بالواقع كان الاستفزاز قويًا لذا مد يده فى كمه وأخرج مفتاحًا .. مفتاحًا من مفاتيح ذلك العصر التى

تحتاج لرجلين لحملها ، وضرب به الرجل فى رأسه ضربة قوية فوق العمامة ، وهو يقول من بين أسنانه :

ـ « تأدّب يا فتى ! »

تحسس الرجل رأسه .. بالطبع لا يجرؤ أحد على رد الضربة لشيخ فانٍ كهذا ، دعك من أنه رجل مهيب أصلاً .. لهذا نظر نحو سيف الدولة وهو يفرك موضع الألم .. كأنه يطالبه باتخاذ إجراء ما ..

قال سيف الدولة بصوت هادئ واثق :

ـ « فلننه هـذا الموضـوع .. أنت تجاوزت حدودك مع الشيخ يا (أحمد) .. »

تعالت أصوات الناس مؤيدة ..

وقد رأت (عبير) أن معهم كل الحق فـى هذا ، وإن فهمت كذلك أن هناك درجة معينة من الشماتة فى تصرفهـم .. إنهم يحقدون عليه كما هو واضح .. لكن الرجل لم يستطع قبول ذلك ..

اتسعت عيناه وضغط علـى عضلتـه الماضغـة فصـارت كـرة حديدية .. ثم نظر للناس الجالسين وسيف الدولة ، وسرعان مـا نـهض مغادرًا المكان ...

مالت على ذلك الرجل الذى يجلس جوارها ، والذى بدا موشكًا على خنقها من كثرة أسئلتها ، وهمستْ :

ـ « هذا الرجل شديد الحساسية الذى غادر المكان شاعرًا بالإهانة .. (أحمد بن عبد الصمد بن الحسين الكوفى الجعفى) .. »

قال مصححًا فى ضيق :

ـ « تقصدين (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى) طبعًا .. »

ـ « نعم .. نعم .. هل له اسم أسهل ؟ »

بدت عليه الدهشة ، ونظر لها ولسان حاله يقول : « من أين يأتون بهؤلاء الحمقى ؟ »

ثم قال :

ـ « هو (أبو الطيب) طبعًا .. (المتنبى) يا حمقاء ! »

4ـ مفترق الطرق ..

« جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس .. »

ابن رشيق القيروانى

* * *

هذا هو المتنبى إذن !

المتنبى بشحمه ولحمه وعبقريته .. الذى اعتبره الكثيرون أعظم الشعراء العرب طرًّا ، والذى اعتبره كذلك ليس أنا بل من هو فى وزن (أبو العلاء المعرى) شخصيًّا .. أبو العلاء له كتاب كامل فى شرح شعر المتنبى ..

قال (أبو العلاء) هذا الرأى ذات مرة أمام الشريف المرتضى نقيب الأشراف ، مما استفز هذا الأخير .. راح يشتم المتنبى ويسفه من شعره وقيمته ، فقال أبو العلاء :

ـ « يكفيه أنه قال قصيدة (لك يا منازلُ فى القؤاد منازلُ) .. »

طبعًا كان أمراء وخلفاء ذلك العصر خبراء فى الشعر ؛ لذا عرف الشريف المعنى الذى قصده الشاعر الكفيف ، وصاح وقد احمر وجهه فيمن حوله :

ـ« أخرجوا هذا الكلب من هنا !! »

فلما طردوا (أبو العلاء) شر طردة من المجلس ـــ وهو لم يكن راغبًا فى حضوره على كل حال ـ قال الشريف المرتضى لمن حوله :

ـ « هل فهمتم ؟.. الأعمى يلمّح إلى هذه القصيدة ؛ لأن فيها البيت القائل :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص .. فهى الشهادة لى بأنى كامل ! »

أى إن الشريف ناقص ؛ لذا فإن رأيه لن يضر المتنبى بشىء .. بل يزيد من قدره .. بصراحة تعتقد (عبير) أن فى هذا نوعًا من التذاكى ، وأن (أبا العلاء) تلقى علقة لتهمة لا ذنب له فيها .. ربما هو قد ظُلم بقسوة .. لكنها تعرف يقينًا أن هؤلاء القوم يفهمون الشعر فعلاً ، وليس من السهل خداعهم...

هذا هو المتنبى إذن ..

طموح وعبقرية يمشيان على قدمين ، وحدة طبع واضحة فى كل شىء ..

هذا هو المتنبى العبقرى .. لقد قابلت عباقرة كثيرين فى فانتازيا وها هو ذا عبقرى آخر ..

فقط عليها أن تلحق به بسرعة ..

هكذا نهضت مغادرة المجلس ، آملة ألا يلاحظ أحد رحيلها .. هذه قلة ذوق لا شك فيها ، لكن لا وقت للمجاملات ..

* * *

كان مشغولاً يجمع حاجياته وثيابه فى عدة صناديق .. ويكلف الخدم بأشياء ..

وقفت على باب جناحه فى حرج تنتظر ..

استدار فرآها .. تغير وجهه قليلاً وبدا أكثر عصبية ، ثم حمل طيلسانًا ألقى به فى أحد الصناديق كيفما اتفق ، وسألها :

ـ « من أنت ؟ »

ـ « صحفية مكلفة بإجراء حوار معك .. »

كان قبيحًا إلى حد ما .. ملامحه حادة فعلاً ، وكانت عيناه قويتين نفاذتين .. بالإضافة لهذا كان شديد الكبرياء على درجة ما من التعالى .. لا يمكن فهم هؤلاء العباقرة ، فإما أن يكونوا متواضعين بسيطين مثل (تشيكوف) و(نجيب محفوظ) ، أو يكونوا مغرورين لهم طباع الأطفال المشاكسين مثل (بيرون) و(بيتهوفن) .. ربما يكونون أقرب إلى الجنون كذلك كما فى حالة (فاجنر) ..

فى الحالتين هم عباقرة .. فلا يمكن أن تصل إلى قاعدة نهائية تقول إن الغرور يدل على ضعف الموهبة ، كما لا يمكن أن تقول العكس .. الفيصل الوحيد هو ما يصنعه هذا الفنان فى النهاية ..

(المتنبى) كما واضح نموذج للشاعر المعتز بنفسه إلى درجة مستفزة أحيانًا ، ولا يكف عن خلق الأعداء ، كما أنه لا ينظر بأى عين من العطف أو التقدير للشعراء الآخرين .. كلهم تافهون مدعون ..

فيما بعد ستعرف (عبير) أنه لا يضحك أبدًا .. هو أميل للاكتئاب والعبوس ، وهناك قصة واحدة عن أنه ضحك عندما رأى رجلين قتلا فأرًا ضخمًا وراحا يعرضان جثته فى فخر ، فسخر منهما ..

وهكذا عندما قالت (عبير) إنها صحفية قال لها فى شىء من السخرية :

ـ « وماذا تريدين معرفته ؟.. لا أحد يجهل من هو (أبو الطيب) ..

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ..

والسيف والرمح والقرطاس والقلم ..

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ..

وأسمعت كلماتى من به صمم .. »

قالت وهى تكتم غيظها :

ـ « نعم .. لكن لا أحد يعرف خلفيات هذه العبقرية .. العبقرى له أم وأب وقصة حب ومشاكل عمل وأحلام و ... و ... »

استند إلى أحد الصناديق المفتوحة التى امتلأت بالدنانير وقطع الذهب ، وقال :

ـ « مشاكل عمل .. نعم .. أنت قد جئت بينما أنا أوشك على مغادرة بلاط سيف الدولة .. تسع سنوات وثمانون قصيدة أو أكثر .. لم يحدث فى تاريخ العرب أن امتدح شاعر حاكمًا بهذا العدد من القصائد. إنه الحاكم الوحيد الذى أحببته حقًا وارتحت له ووثقت به ، ورافقته فى كل حملاته البطولية ضد الروم .. وصفت كل شىء .. رثيت من مات من أقاربه .. امتدحته .. وصفت معاركه .. إن أصدق مدحى كان من أجله .. وهو كذلك كان يعرف قدرى جيدًا .. »

« بالجيش يمتنع السادات كلهم

والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع .. »

أى إن السادة يحتمون بالجيوش .. لكن الجيوش تحتمى بسيف الدولة !

* * *

وتشرد نظـرات المتنبى .. يسترجع تدليل سيف الدولـة لـه ، حتى إنه الشاعر الوحيد الذى كان يحق له إلقاء الشعر جالسًا أمام الحاكم ، بينما أى شاعر آخر يجب أن يقف .. يسترجع حقد الشعراء عليه ، وكيف دخل أحدهم على سيف الدولة غاضبًا ليقول :

ـ « أنـت يا مولاى تدلل المتنبى أكثر من اللازم .. أنا أفضـل منه فى الشعر ، ويمكننى أن أعارض أية قصيدة له .. »

قال سيف الدولة على الفور :

ـ « عارض قصيدته التى تقول : لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى .. وللحبّ ما لم يبقَ منى وما بقى .. »

نظر له الشاعر فى حيرة .. فالقصيدة متوسطة المستوى .. بل هى من أسوأ قصائد المتنبى .. ثم أدرك أن سيف الدولة اختارهـا لأنها قصيدة ضعيفة .. إنها الغبار المتناثر من تحت سنابك ذلك الحصان الجامح .. لقد كان المتنبى يقول فى القصيدة :

بلغتُ بسيف الدولة النور رتبة .. أنرتُ بها ما بين غرب ومشرق
إذا شـاء أن يلهـو بلحيـة أحمـق .. أراه غبارى ، ثمّ قال له : الحقِ !

هذا هو !.. سيف الدولـة أراد أن يلهـو بلحيـة الشـاعر الأحمـق ، فأراه غبار المتنبى وطلب منه أن يلحق به !

هكذا كانت الأمور ثم انتهت ...

* * *

سألته (عبير) وهى تضع الجهاز قرب فمه :

ـ « شعر المناسبات والمدح قد يبدو أقل أهمية من الشعر الذاتى .. لاحظنا أن وصف الطبيعة فى شعرك قليل جدًا .. »

كان سؤالاً مهمًا فعلاً ؛ لأن الرجل لم يصف نهرًا أو مطرًا إلا من حيث هو يذكره بسخاء من يمدحه .. فقط !

قال فى عصبية :

ـ « هل تحسبين الحياة مع أمير باعتبارك شاعرته سهلاً ؟.. يجب أن تكون قريحتك جاهزة دائمًا فلا مجال هنا (للمزاج) .. لو أمطرت السماء على الأمير ، كان عليك كتابة قصيدة تفضل صيب الأمير على صيب السماء .. لو هبت عواصف فأطارت خيمة الأمير ، فعليك أن تكتبى قصيدة تتفاعل بهذا الذى حدث ، وتقولين إن عظمة الأمير أكبر من أن تتحملها الخيمة .. لو مرض الأمير فعليك أن تتمنى له الشفاء .. لو شفى الأمير فعليك كتابة قصيدة تهنئة ممتازة .. كل هذا يجب أن يتم بسرعة وإلا سبقك الشعراء الآخرون !.. أنا فعلت هذا بكفاءة تامة مع سيف الدولة .. »

سألته (عبير) :

ـ « ولماذا ترحل ما دامت العلاقة مع سيف الدولة حميمة كما تصفها ؟ »

احمرَّ وجهه وأغلق الصندوق بصوت مسموع ، وهتف :

ـ « لأنه لم ينصفنى .. لقد أهنت أمامه الآن على يد (ابن خالويه) فلم يتدخل !.. هذا الموقف نتيجة أشهر من الوشايات وسوء الفهم .. أخشى أننا بلغنا مفترق الطريق فعلاً .. حان الوقت لإنهاء صداقة دامت تسعة أعوام . . حان الوقت كى أترك حلب كلها لينعموا بها هم .. فى الحقيقة أنا أفهمهم إلى حد ما .. هذا شعور بشرى طبيعى .. لابد أن يجنوا ويغتاظوا لوجود شاعر مثلى فى هذا العالم ، فلو زلت لنالوا المجد كله .. إن لى شعرًا يلخص هذا الموقف :

« إنى وإن لمتُ حاسدىّ فما ∴
أنكر أنى عقوبة لهمُ
وكيف لا يُحسد امروٌ عَلَم ∴
له على كل هامة قدم ؟ »

ابتسمت (عبير) .. يجب أن تضغط على أعصابها وتتحمل فخر هذا الرجل بنفسه طيلة الوقت ، لكنها لا تنكر كذلك أن شعره رائع .. الحمد لله أنها ليست شاعرة وإلا لجعلها تلقائيًا من أعدائه ..

لكن المتنبى ـ والحق يقال ـ كان يحترم شاعرًا واحدًا فى البلاط كله ويصغى لشعره فى اهتمام .. إنه (النامى) .. شاعر حقيقى استطاع أن يظفر باحترام المتنبى ، لكنه ـ لأسباب مجهولة ـ لم يشتهر فى تاريخ الأدب العربى فلا يعرفه إلا قلة من الدارسين ..

عادت تسأله :

- « هل الوشاية هى السبب الوحيد ؟ »

ابتسم فى خبث ، وتحسس لحيته الناعمة ، وقال :

- « ربما كذلك ما قلته عن (خولة) أخت (سيف الدولة) فى قصيدة لى أرثيها فيها .. لقد وصفت مبسمها ، واعتبر هو هذه إهانة لا تليق .. »

أطلت على مدينة حلب كما تبدو من نافذة فى الغرفة ، وكما تبدو وقد استحمت فى ضوء الغروب القرمزى الباهت الحزين .. حلب الشهباء الواقعة ما بين نهر الفرات والبحر المتوسط .. وقالت :

- « بينى وبينك .. معه حق .. هذه قلة أدب لا شك فيها .. »

فيما بعد قال الخوارزمى عالم الجبر العظيم : لو عزانى أحد فى امرأة لى ببيت شعر كهذا لألحقته بها !!

هذه واحدة من تجاوزات المتنبى المعروفة .. أحيانًا يكون وقحًا جدًا أو يجافيه التعبير .. لو سمحت لى بتعبير عامى دقيق لقلت إنه (مَدَبّ) .. ولسوف تورده عثراته الذوقية هذه موارد الأذى طيلة حياته ...

مد المتنبى يده إلى قرطاس يحمله .. قرطاس من الطراز العباسى جدًا الذى تكتب عليه أوامر الملوك وفرماناتهم ، وناوله لها :

ـ « هذه آخر قصيدة مدح كتبتها فى سيف الدولة .. خذيها لتنشريها عندك حصريًا .. هذا انفراد لا شك فيه .. تخيلى عناوين جريدتكم تقول : نحن ننفرد بنشر آخر قصائد المتنبى فى سيف الدولة ! »

بالفعل هذا انفراد .. المشكلة هى أن القصيدة سوف تنشر بعد 1000 سنة تقريبًا .. لكنها فتحت القرطاس فى امتنان وقرأت بصوت عال مرتجف :

لا تطلبنّ كريمًا بعد رؤيته

إن الكرام بأسخاهم يدًا خُتموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أى أن (سيف الدولة) هو أكرم الكرام فلا تسأل عن كريم آخر بعده ، وكذلك شاعره هو الأفضل فلا تهتم بالشعراء الآخرين .. هذه سمة عامة سوف تلاحظها (عبير) فى شعره فيما بعد : لابد أن يمتدح نفسه مع من يمتدح .. بل إن امتداحه لنفسه غالبًا ما يأخذ الجانب الأكبر والأجمل من القصيدة ..

قالت صادقة :

- « أبيات جميلة جدًا .. »

- « إم م م .. »

قالها بلهجة من مل سماع هذه البديهيات .. ثم عاد يصدر أوامره الحادة للخدم ..

برغم كل شىء كان متأثرًا فعلاً .. الصدام بين كبريائه الملتهبة وحبه الحقيقى لسيف الدولة .. لقد ربحت الكبرياء .. دعك من أنه لا يشعر براحة وسط كل الأفاعى التى تزحف فى هذا البلاط ..

لابد أن البلاط كله سمع بالخبر ، ولابد أن (سيف الدولة) عرف أن المتنبى راحل . فلماذا لم يستدعه أو يهرع له ؟.. المعنى ببساطة أنه أراد هذا ...

قال المتنبى فى يأس عالمًا أن الوقت فات لتقريب الفجوة بينه وبين سيده :

بينى وبينك ألف واش ينعبُ
فعلام أسهب فى الغناء وأطنبُ ؟

صوتى يضيع ولاتحس برجعه
ولقد عهدتك حين أنشد تطربُ

ثم قال قصيدة رقيقة فعلاً :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به

من أن أكون حبيبًا غير محبوب

لقد انتهت مرحلة مهمة من حياة المتنبى ، هى علاقته بسيف الدولة ..

إنه راحل وبالتالى هى مضطرة للرحيل معه ..

تريد أن تعرف من هو ؟

كيف صار من صاره ؟

والأهم هو : ماذا سيحدث له وهو القادر على اجتلاب المتاعب أينما كان ؟

* * *

4 ـ مصر التى لم يحبها ..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله ، ومن فوقه لوّح المتنبى بسيفه وصرخ صرخة هائلة .. هوى بسيفه على عنق أحد الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان ..

وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة ..

* * *

قال المتنبى لـ (عبير) وهو يقود حصانه ، وقد رفع حاجبيه وأغمض عينيه ، بالطريقة التى فهمت (عبير) أنها لحظة تلقيه لشيطان الشعر :

وأعلم أن البين يشكيك بعده
فلست فؤادى إن رأيتك شاكيًا
فإن دموع العين غدر بربها
إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخيا
أقلّ اشتياقًا أيها القلب إننى
رأيتك تصفى الود من ليس صافيا

ثم فتح عينه ببطء ونظر لـ (عبير) التى تلاقى المتاعب على صهوة جواد يخب جواره ، وكأنه يسألها عن رأيها أو ينتظر إطراء ، فقالت وهى تمسك اللجام بقوة :

ـ « لا أفهم حرفًا .. لو كنت تحسبنى (الخليل بن أحمد) فأنت مخطئ على الأرجح .. »

ـ « لا أحسبك شيئًا على الإطلاق .. هذه أبيات ألوم فيها فؤادى على اشتياقه لسيف الدولة .. »

قالت فى عصبية :

ـ « جميل جدًّا .. تصفه بأنه غادر .. وأن ما يمارسه ليس سخاء ولكنه (تساخ) .. وهو ليس صافى الود .. ألا ترى أنك تحمل له تقديرًا زائدًا ؟.. هل هذا رأيك فيه فعلاً ؟ »

أغمض عينيه من جديد ، وقال وهو يهز رأسه :

ـ « ألم تسمعى عن شيطان الشعر ؟.. أحيانًا تكتب الأبيات نفسها وتدفع الشاعر إلى قول ما لم يقصده .. المغالاة .. المبالغة ..هذه من سمات الشعر المهمة .. »

ـ « ربما لهذا يكتبون الشعر الحديث أحيانًا .. يقولون ما يريدون دون تكلف .. »

نظر لها فى اهتمام وتساءل :

ـ « شعر حديث ؟.. ما هو ؟ »

ـ « شعر تحرر من القافية وطول السطر .. وربما التفعيلة أحيانًا .. »

ثم أغمضت عينها وقالت بلهجة درامية :

ـ « أراها تخط تاريخها السرمدى فى صفحة الطحلب الزغبى ..

« وفى رئة الشمس يغلى التداخل والاختمار ... »

نظر لها ورفع حاجبًا واحدًا .. ثم سألها دون أن يبدو مزاح فى صوته :

ـ « هل أنت متأكدة مما تقولين ؟.. الشمس لها رئة .. وهناك من يكتب فى صفحة الطحلب الزغبى ؟.. لقد سمعت شعرًا أروع قالته ناقتى .. ما معنى هذا الكلام الفارغ ؟.. هل هى تعويذة لطرد الشياطين ؟ »

قالت فى كبرياء :

ـ « بل هو شعر حديث .. أنت لن تفهم هذا .. »

فى ضجر قال :

ـ « ولا أريد أن أفهم .. نحن متوجهون إلى مصر على كل حال .. »

مصر ؟

ولماذا مصر ؟

كان العراق أقرب له وأسهل ..

لما سألته هذا السؤال ، قال فى غموض :

ـ « هذا السؤال سيحير أديبًا من عصركم اسمه (طه حسين) ، ولسوف يرجح أن السبب هو أنى أفسدت علاقتى بالعراق والعراقيين بكل ما قلت من هجاء فيهم .. لقد قطعت جسورى مع العراق .. صحيح أننى هجوت الإخشيديين فى مصر قليلاً ، لكن هذا لم يخلق خلافات خطيرة .. »

ـ « هذا كلام (طه حسين) عنك !.. فماذا عن كلامك عن نفسك ؟ »

قال بذات الغموض :

ـ « هذا سر ! »

* * *

بعد أيام وليال فى صحراء سيناء الرهيبة .. وبعد الفرار من مئات الذئاب وهجمات عشرات من قطاع الطرق ـ لاحظ أنه لم تكن هناك نقاط حراسة ولا قرى سياحية فى ذلك العصر ـ بلغ المتنبى ومرافقته وقافلته (مصر)...

بدا الجو مألوفًا لعبير فعلاً برغم أن ألف عام تفصلها عنه ..

سألت المتنبى وهما يقتربان من مشارف المدينة الضخمة (الفسطاط) :

ـ « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ «سؤال سخيف .. طبعًا ذاهب للقاء الحاكم (كافور الإخشيدى) .. »

ـ « وماذا تنوى عمله عنده ؟ »

ـ « سؤال أسخف .. سأمدحه طبعًا .. »

حكت رأسها مفكرة ، ثم سألته :

ـ « هل تعرف من مآثره ما يكفى لجعلك تنفعل وتكتب شعرًا ؟ »

رفع رأسه فى شمم وضرب خاصرة الحصان بكعبيه ليسرع أكثر ، وقال :

ـ « يا فتاة .. أنا لم أمدح أحدًا ، ولن أمدح أحدًا عن اقتناع سوى (سيف الدولة) ، أما هنا فالمدح مجرد وسيلة للتقرب من الرجل ..

هذه صفقة عادلة .. أنا لدى شعر ممتاز وهو لديه مال ونفوذ عظيمان .. خذ هذا وهات ذاك .. نفس ما تفعلينه فى السوق .. »

ـ « هذا منطق عملى .. لكنه (براجماتى) أكثر من اللازم .. »

ـ « لا أعرف معنى لفظة (براجماتى) هذه لكنى أعرف معنى لفظة (طموح) .. »

الطموح .. نعم .. هذه الكلمة تلخص المتنبى ..

الطموح لمكانة فى الشعر لا يبلغها أحد ..

الطموح للمجد ..

الطموح للثراء ..

الطموح للنفوذ ..

الطموح لـ ... لشىء لا يعرفه هو نفسه لكنه يريده بقوة كاسحة ..

تدخل (عبير) معه إلى بلاط (كافور الإخشيدى) ..

ينظر الجالسون فى فضول ودهشة إلى القادم الجديد .. لا يبدو عليه الوجل أو التردد بل يتقدم مرفوع الرأس مليئًا بالثقة بالنفس نحو الحاكم الجالس على العرش .. الحاكم أسود اللون الذى يلتمع

جلده فى ضوء المشاعل كأنه الأبنوس ، والذى تطل نظرات مخيفة من عينيه ببياضهما الناصع .. شفته السفلى غليظة جداً ومثقوبة ، بينما يتهدل شعره المجعد الأشيب على كتفيه ..

لم يكن جميلاً لكنه مهيب بلا شك .. فاخر لو شئت الدقة ..

بصوت جهورى قال المتنبى :

ـ « السلام على (كافور الإخشيدى) .. أنا (أبو الطيب) أشعر شعراء العرب .. جئت بقصيدة أمتدحكم فيها .. »

ساد الصمت .. الحقيقة أن هذا التملق بدا أقرب إلى التهجم .. كأن (كافور) هو الذى جاء يستعطى المتنبى ، وقد تذكرت (عبير) على الفور التعبير العامى (حسنة وأنا سيدك)..

نحوها اتجهت العينان المخيفتان ، وسأل (كافور) :

ـ « ومن هذه ؟ »

قال المتنبى :

ـ « صحفية تغطى قصة حياتى وتدون شعرى .. »

ـ « ما معنى (صحفية) ؟ »

ـ « لنقل إنها (راويتى) .. »

ثم انتصب وأخذ شهيقًا عميقًا ، وأغمض عينيه وقال :

ـ « هذه أبيات قمت بتأليفها لـ (كافور) العظيم ..

« قواصد كافور توارك غيره

« ومن قصد البحر استقل السواقيا

« فجاءت بنا إنسان عين زمانه

« وخلت بياضًا خلفها ومآقيا .. »

فى الحقيقة لم يكن قد ألف هذه الأبيات ، بل هو يؤلفها للحظته !.. ارتجال الشعر من مواهبه العظيمة ، لكنه يخفى ذلك ويتظاهر بأنه سهر أيامًا فى نظمها .. وما كان يعرف كيف ستكون القصيدة قبل أن ينشد أول بيت فيها ..

* * *

حذار يا متنبى ..!

كافور الإخشيدى يختلف تمامًا عن سيف الدولة ..

الأستاذ ـ هكذا ينادونه ـ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى .. عبد عاش فى مصر ثم بيع إلى أمير سورى .. مات سيده أمير دمشق ، فولاه ابناه مكان أبيهما لأنهما يعرفان ذكاءه وشجاعته جيدًا .. ثم اتجه إلى مصر ليهزم ملكها (غلبون المغربى) .

لم يكن كافور حاكمًا سهلاً أو ساذجًا .. أن الفاطميين كلما فكروا فى غزو مصر كانوا يقولون : « دوننا ومصر الحجر الأسود ! » .. والحجر الأسود هو كافور ...

الحقيقة أن المتنبى خلد هذا الرجل فعلاً ، ولكن خلده بالشكل الخطأ .. خلده بالسباب فيما بعد .. لكن التاريخ ينقل لنا صورة مختلفة تمامًا عن هذا الرجل .. والمؤسف أن معظم الناس لن تعرفه إلا عن طريق أبيات المتنبى ..

هكذا ظل متجهم الوجه يصغى للمتنبى وهو يمدحه :

- « وأخلاق كافور إذا شئت مدحه

وإن لم أشأ تُملى على فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه

ويمم كافورا فما يتغرب »

قال كافور فى برود ما معناه (كويس) .. هذه الحيل لا تنطلى على رجل ارتقى السلم منذ كان عبدًا بيع بعشرة دنانير إلى أن صار حاكم مصر ومعظم الشام .. ..

يواصل المتنبى إنشاده :

ـ « أحنّ إلى أهلى وأهوى لقاءهم

وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم

فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب »

المعنى ؟.. أن المتنبى يحن لأهله بشدة وقد ابتعد عنهم كأنه طائر العنقاء فى رحلته نحو الغرب ، لكن لو كان عليه أن يختار فهو يفضل الأستاذ (كافور) ..

كرر كافور شكره الفاتر للشاعر ، ثم أمر بأن يقيم فى البلاط معه هو وتلك الصـ .. تلك الصحفية .. وأمر له بمنحة مالية .. الرجل يتذوق الشعر ويفهمه ، فليس عنده للمتنبى إلا المال .. هذا هو سعر ما قال من شعر ..

فى اليوم الثانى أنشده المتنبى قصيدة أخرى تقول :

ـ « كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا »

ابتسم كافور للمرة الأولى .. ابتسامة شاحبة متحفظة ، لكنها جعلت المتنبى يدرك أن الجدار ليس مسدودًا تمامًا ..

بعد أيام ألف قصيدة جديدة تقول :

ـ « ولما صار ود الناس خبا

جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه

لعلمى أنه بعض الأنام »

هنا غابت الابتسامة عن وجه الأستاذ كافور .. هذه من عثرات المتنبى الذوقية المعروفة .. إن الناس يبتسمون لى برغم أننى أشك فيهم جميعًا .. حتى من أحبه أشك فيه لأنه (ناس) هو الآخر .. هكذا قرر كافور ألا يبتسم فى وجه المتنبى ثانية ، وقد فهم المتنبى أن الرجل يفهم الشعر جيدًا وليس أحمق .. لا غرابة فى أن اسمه (الأستاذ) .. السبب هو براعته فى اللغة العربية ..

الحق أن المتنبى أهان نفسه كثيرًا مع كافور .. والأغرب أن شعره كان يقول عكس ذلك ، كأنه كان يمارس تفاعل الإزاحة النفسى الشهير ..

ومن يهن يهن الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

هكذا بدا أن أيام شاعرنا الطموح فى مصر ستكون صعبة فعلاً ..

5ـ ذكريات ..

عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث ، شعر بالأرض تميد تحت أقدام الحصان ..

إن للخيول عادة ذميمة هى أنها تتعثر فى اللحظة غير المناسبة ، وقد هوى حافر الحصان فى حفرة فى الأرض فأطلق صهيلاً ثم تعثر ليسقط على قائمتيه الأماميتين ..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار ، وللحظة حسبت (عبير) أن رأسه طار كذلك ، ثم أدركت أنها العمامة ..

* * *

كره المتنبى كل شىء فى مصر .. جوها .. حرها .. ماءها .. ناسها .. وبالذات كره حاكمها ..

من الواضح أن قلبه ظل معلقًا بحلب للأبد ..

وقد كان جالسًا فى جناحه يطالع بعض الصحائف ، عندما دقت (عبير) الباب ودخلت .. لقد وجدت أن الوقت مناسب لمعرفة خلفيات هذا الشاعر العظيم ..

ـ « تعالى .. »

دخلت وجلست بقربه فتأملها فى اهتمام .. ماذا هنالك ؟.. هل سيحبها كعادة أبطال فانتازيا ؟.. ثم أدركت أنه يريد أن يعرف شيئًا واحدًا :

ـ « هل أنت مصرية ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « كيف تطيقين هذا البلد وهؤلاء القوم ؟ »

بدا لها كلامه لا يخلو من إهانة .. هل هو حقًا لا يجد ما يجذبه فى النيل والخضرة ووجوه الفلاحين الطيبة ؟.. فقالت فى حزم :

ـ « كما يطيقك هذا البلد وهؤلاء القوم .. »

ـ « إذن هى كراهية متبادلة .. »

هنا فهمت لماذا كان يطيل النظر لها .. هو لن يحبها طبعًا .. هو من طراز الرجال الذين استبد بهم الطموح ولا يرون شيئًا سوى المستقبل ، ويتزوجون أول امرأة تصلح لتخفيف العبء عنهم فى رحلة الطموح المجنونة هذه .. فقط كان ينظر لها فى فضول لأنها مصرية ..

نظر لسقف الغرفة وتنهد طويلاً ، ثم قال :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى الركـاب ولا أمـامى
قليـل عائدى .. سقم فـؤادى
كثير حاسدى .. صعب مرامى

بهذه الأبيات العبقرية لخص حاله فى مصر :

1 ـ عائد قليل ..

2 ـ فؤاد سقيم ..

3 ـ حاسدون كثيرون

4 ـ مرام صعب ..

قررت أن تغير الموضوع حتـى لا تشتبك معـه .. مهمـا كـانت تحفظاتها على مصر فهى لا تسمح لغير مصرى بأن يشتمها ..

حكى لها قصة حياته حتى هذه اللحظة ..

لقد ولد فى (كندة) بالكوفة عام 303 هجرى (أو 915 ميلادى) .. (الكندى) لا تعنى أنه من كندا طبعًا .. إنه مولود من بلدة قـرب النجف ... يتيم لم ير أمه قط .. حـار المؤرخون حـول أبيه وما إذا كان سقاء بسيطًا أم من نسل ملـوك اليمن .. وبـدأ يقرض الشـعر من صغره .. ولديه قصائد ممتازة فى سن التاسعة !..

يقولون إن أول ما نظمه من شعر هو :

بأبى مـن وددتـه فافترقنـا

وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنـا حولاً فلمـا التقينـا

كـان تسـليمـه على وداعـا

لا تعرف (عبير) كيف نظم صبى هذه المعانى الناضجة ، ولا كيف يعرف معنـى اللقـاء والـوداع فـى عصـر سبق الفضائيـات بعشـر سنوات ، لكن المتنبى كما قلنا كان عبقريًا .. (موتسارت) جـرب أن يكتب أول سيمفونية له فى سن السادسة !

قال لها المتنبى فى غيظ :

ـ « د. طه حسين فى عصركم سوف يرى أن هذا البيت سخيف مفتعل ، وإننى افتعلته لمجرد أن أقول (كان تسليمه على وداعا) .. أى أنه شطر راق لى فبنيت عليه قصيدة كاملة لا معنى لها ! »

قالت ضاحكة :

ـ « مثل الرجل الذى يلعب كلبه الشـطرنـج ، لكنـه غير منبهر بهذا لأنه يغلب الكلب فى كل مرة يلعبان فيها ! »

ـ « لا أفهم مثالك هذا .. لكن الويل لك لو كنت تشبهيننى بكلب ! »

رسمت على وجهها علامات الجدية ، متظاهرة بأنها لم تشبهه بكلب ، وعادت تسأله :

ـ « وماذا بعد ذلك ؟ »

ذهب الصبى إلى البادية ليتعلم لغة العرب جيدًا ، وهى سياسة معروفة لدى من قرر أن يحترف الأدب ..

ومن بين كل شعراء العرب توقف طويلاً عند (أبو تمام) و(البحترى) ..

الحقيقة أن هذه الحقبة كانت هى التى بدأت تتفكك فيها الدولة العباسية .. صارت هناك عشرات الإمارات والدول الصغيرة المتناحرة عند الأطراف ، وهى فترة مستحيلة الحفظ أرهقت كل طالب يدرس التاريخ ..

صراعات وتنافس بين إمارات صغيرة .. فتنة القرامطة .. إلخ ..

استولى البويهيون على بغداد ، واستولى الإخشيديون على حكم مصر ، وأسس الحمدانيون دولتهم فى شمال الشام بعد صراع مع الإخشيديين .

كل إمارة تطلب المجد لنفسها ..

قال لها المتنبى :

- « الشاعر العظيم يلعب فى زمننا ما تلعبه فى زمنكم قناة فضائية كاملة لا هم لها سوى مدحك والإشادة بك .. هكذا عرفت طريقى منذ اللحظة الأولى، ولم أضيع وقتى .. سأكون الشاعر الذى يتقاتل عليه الأمراء .. ثم أصير أميرًا .. وسوف يأتى الشعراء ليلقوا أمامى قصائد المدح .. »

هكذا نجد إنه عاد إلى الكوفة بعد ما سيطر على اللغة العربية .. اللغة العربية ذلك الحصان الجامح الذى يمكن أن يقهر أقوى الفرسان وأعلمهم ..

- « كنت أعرف بالضبط ما أحتاج إليه كشاعر ، وقد حرصت على تحصيله مبكرًا جدًا .. »

الآن جاء موعد بغداد .. الملتقى العلمى والأدبى الأهم فى العالم العربى .. ربما فى العالم كله وقتها ..

ذهب هناك مع أبيه وهو فى سن المراهقة ، وهناك قابل الكثيرين وتعلم منهم ، ومنها إلى الشام .. دمشق .. اللاذقية .. حمص ..

* * *

هل هذه الخبرات الصغيرة هى ما يصنعنا ويشكل فلسفتنا فى الحياة ؟

حكى لها المتنبى أنه كان يمشى فى السوق ومعه خمسة دنانير .. رأى البطيخ الأخضر جميل اللون عند بائعه الذى شق ثمرة أو اثنتين ليظهر قلبهما الأحمر الذى يسر الناظرين ..

- « هل تبيعنى بطيخة بخمسة دنانير ؟ »

قالها للبائع .. فضحك هذا ساخرًا ورفض ..

عاد يكرر الرجاء لكن الرجل كان مصرًا .. وهكذا وقف الفتى الجائع الظمآن ينظر للدنانير وينظر للبطيخ .. حسناء ليس معه مهرها وخمسة دنانير لا تغنيه شيئًا ..

هنا ظهر رجل متأنق يلبس ثيابًا فاخرة ، تبدو عليه الثقة ، فاتجه نحو البائع وانتقى بطيخة ممتازة .. ثم سأل البائع عن ثمنها .. قال البائع النصاب :

- « بدينارين فقط يا سيدى ! »

دفع الثرى الدينارين وانصرف شاعرًا بالرضا عن نفسه ..

هنا سأل المتنبى البائع فى حيرة :

- « تبيع له بدينارين ، وتأبى أن تبيع لى بخمسة ؟ »

قال البائع بلهجة من فهم الحياة منذ زمن :

ـ « ويحك !.. إنه ثرى .. لديه مائتا ألف دينار ! »

كان هذا هو الدرس الأول والأقسى فى حياة المتنبى .. الأثرياء يحصلون على كل شىء ، ويحصلون عليه بأسعار أرخص من الفقراء .. من يدفع الثمن الباهظ هو الفقير ..

إذن لابد أن يكون ثريًا .. لابد ...

* * *

كتاب راق له عند بائع الكتب ..

راح يقلب صفحاته الثلاثين ويعيد تقليبها ، فملّ البائع وسأله :

ـ « هل تنوى شراءه أم لا ؟.. لن تستطيع قراءته كله وأنت واقف هكذا .. »

ابتسم الشاعر فى ثقة ، وأعاد الكتاب للرجل وقال :

ـ « بل قد حفظته كله ! »

وفى اللحظات التالية برهن على أنه كان صادقًا !

* * *

من حين لآخـر لـه سقطات ومبالغـات لا بـأس بهـا ، وقد نـال عشرة دراهم لا أكثر عن هذه القصيدة :

لم يخلق الرحمن مثل محمد

أحدًا .. وظنى أنه لا يخلقُ !

لاحظ أنه لا يتكلم عن (محمـد) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يتكلم عن محمد آخر من بنى أوس يمتدحـه بهذه المبالغة الشنيعة ، وهى مبالغة لم تنطل علـى الرجل الـذى أعطـاه عشـرة دراهم لينصرف عنه .. أى إنـه بلغتنـا أعطـاه سيجارة وقـال لـه (اتوكل) ..

عامة يميل المتنبى إلى التجاوز الدينى كثيرًا جدًا ، وله أبيـات يمكن أن يشيب لها شعر رأسك .. هناك كذلك قصائد مطولـة يمتدح فيهـا أشخاصًا أهدوا إليه وجبة من السمك بالعسل والفستق ! يبدو أنه كـان مولعًا بالطعام الجيد إلى درجة (الدناوة) مثل (بشار بن برد) ..

إضافة لهذا كانت أشعاره فى تلك الفترة تتعمـد غرابة الألفاظ فـى استعراضية واضحة .. كلما تقدم فى السن ازداد شعره سهولة ..

هو الآن فـىَ العشرين .. هذه هـى السن التـى تحـوم حولهـا علامات الاستفهام .. يقولون إنه ادعـى النبـوة فـى ذلـك الحين ، ويقـال إنـهـا إشـاعة أطلقهـا المغرضـون .. لكـن هـذا سـبب اسـم (المتنبى) الذى التصق به للأبد ..

له فى هذه السن قصيدة شهيرة جدًّا يشبه نفسه فيها تارة بالمسيح بين اليهود ، وتارة بسيدنا صالح فى ثمود .. وفى هذه القصيدة يتكلم بلهجة القرامطة فيستحلّ دم الحجاج فى ثياب الإحرام ، ويحرم الصلوات الخمس .. ثم فى النهاية يسخر من كل شىء لأنه (محتقر فى همتى .. كشعرة فى مفرقى) .. باختصار لو عاش فى القرن العشرين لصار من كبار المفكرين الفوضويين ..

هذا هو مستند الاتهام الأول أو Exhibit A كما تقول المحاكم الغربية .. لم يدعِ النبوة بالمعنى الحرفى .. لكنه جدف كثيرًا ..

إشاعة أم لا .. لقد دخل الفتى السجن عامًا كاملاً لتأديبه .. ومن الواضح أن السجون فى ذلك العصر كانت تجربة أقسى بمراحل من سجوننا الحالية .. لكنه سعيد الحظ لأنه لم يُعدم ..

قالت له (عبير) وهى ترتجف :

« لقد أعدم سقراط والحلاج لأسباب كهذه أو أقل .. »

قال فى خبث :

ـ « دعك مما لم يسجله الزمن .. لقد ألغيت الكثير مما قلت فى ذلك العصر .. »

فى السجن كتب للؤلؤ وإلى الإخشيديين يطلب العفو ، ويقول :

ـ « وكن فارقًا بين دعوى أردت

ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد .. »

أى أن على الوالى أن يفرق بين (أردت) و(فعلت) .. المتنبى أراد فقط .. لابد إلا يُعامل من أراد معاملةَ من فعل ..

كانت تجربة عصيبة لشاب طموح مثله ، وعندما خرج من السجن كان قد صمم على أن يبتعد عن قصة النبوة هذه ، وأن يجد أميرًا أو ملكًا قويًا يلتصق به ليحميه ..

فى البداية تزوج من امرأة شامية ، أنجبت له ولده الوحيد (محسد) ..

إن المتنبى فى الثلاثين من عمره الآن .. فى أنطاكية قابل ابن عم سيف الدولة ، ولقد سهل له الرجل أن ينضم إلى بلاط سيف الدولة ..

هذه كانت أجمل فترات حياته وأكثرها خصبًا ..

لقد وصف كل شىء فى هذا البلاط ووصف حروب (سيف الدولة) وشخصيته العظيمة .. هذا أصدق شعره بالفعل لأنه آمن بنبل الرجل .. من منا لا يحفظ هذه الأبيات فى مدح سيف الدولة ؟

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الرَّدى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً
ووجهك وضاحٌ ، وثغرُكَ باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
إلى قول قومٍ أنت بالغيب عالم

صورة خالدة عبر الأجيال للبطل الباسم هادئ الجنان ، يرى الفرسان الشجعان يتساقطون جرحى ، لكنه ثابت كأنه يقف فى عين الموت .. ثابت حتى قال الناس إنه يعرف الغيب ويعرف أنه سينجو ..

كما قلت : كانت من أجمل فترات حياته ، لهذا كان لابد أن تنتهى .. الحساد يكثرون والوشاة .. والمتنبى لا يجيد فن التواضع أو كسب الخصوم ، ولا يمنحك أبدًا لفظة مجاملة أو مديح تحتاج لها . وهم لا يكفون عن الهمس فى أذن سيف الدولة : شاعرك هذا مغرور .. شاعرك هذا وقح .. شاعرك هذا معدوم الموهبة .

ثـــم ....

شاعرك أهان أختك وهى ميتة ..

كانت هذه هى نقطة افتراق الطرق ..

* * *

الآن يجرب المتنبى الفصل الثانى من حياته فى مصر ..

فلو كان هذا فيلمًا سينمائيًا لكان أقسى الفصول وأقلها أحداثًا ..

إنه فى مصر مع حاكم لا يحبه ولا يفهمه .. وفى جو لم يعتده ..

أدركت (عبير) أن إقامة المتنبى فى مصر لن تطول ..

* * *

6ـ كافور..

نهض المتنبى على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من دوار ..

الويل لهم .. سوف يرون ..

هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحًا بسيفه ، وكان له من اسمه نصيب ..

* * *

لم يحب (كافور) المتنبى قط ، لكنه لم يعلن هذا ..

من السهل أن تجده يبتسم له ، لكنه لا يعطيه كل كيانه ، ويكتفى بأن يمنحه مكافأة بسيطة ولا يعيره أذنه .. وبالطبع كان يعاملها بجفاء مماثل باعتبارها تنتمى للمتنبى بشكل ما ..

كان المتنبى واضحًا .. هو لا يريد مالاً .. يريد ولاية .. يريد أن يصير حاكمًا ، وأن يعرف سيف الدولة هذا .. لكن (كافور) أذكى من ذلك .. لقد فهم معدن المتنبى بنظرة واحدة ، وقرر ألا يسمح له بشىء ..

نحن الآن فى مجلس كافور .. هذا هو شاعر من شعراء مصر ينشد فى حضرة كافور ..

المتنبى لا يحسن المجاملة ولا يخفى مشاعره .. هو يرى أن كل هؤلاء حمقى لا يفقهون شيئًا فى الشعر .. لهذا يجلس ولا يصغى .. بل يدمدم بفمه محدثًا جلبة تضايق الشاعر ..

عندما انتهى الشاعر من قصيدته نظر بعينين ناريتين تقتلان إلى المتنبى وكذا فعل الجالسون .. لو أن النظرات نصال لمزقت عباءة الشاعر العراقى وعمامته .. وتعالت أصوات همسات مسموعة :

- « هذا لا يطاق .. »

- « المتنبى لا يملك موهبة تبرر كل هذه الوقاحة ، وكل هذا الغرور .. »

أنشد المتنبى بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه :

- « أرى المتشاعرين غروا بذمى

ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟

ومن يكُ ذا فم مر مريض

يجد مرّا به الماء الزلالا .. »

سأله كافور بصوت عال :

- « ماذا تقول يا أبا الطيب ؟ »

قال المتنبى بنفس اللهجة السابقة :

ـ « أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت
وإذا نطقتُ فإننى الجوزاءُ
وإذا خفيتُ على الغبى فعاذر
ألا ترانى مقلة عمياءُ .. »

هذا غير معقول ..

فكرت (عبير) .. المتنبى يريد الظفر بحب وثقة كافور ، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يتنازل لحظة ويجامل من حوله .. لهذا يخلق الأعداء حيثما كان .. والأعداء يصبون سمومهم فى أذن حاكم مصر ..

هكذا مرت الأيام .. عام كامل مر فى مصر ..

المشكلة هنا تتلخص فى :

1 ـ كافور لا يثق به ، ولا يعطيه ما يريد.

2 ـ هو فعلاً لا يقابل (كافور) .. يتبعه لكنه لا يقابله ..

3 ـ الحياة خاملة فعلاً .. لا شىء يحدث وهو اعتاد حياة المغامرات مع سيف الدولة . المشكلة فى مصر هى بعدها عن الخطر .. فلا يتهددها الروم مثلاً كما فى الشام .. ربما

يهددها الفاطميون لكنهم بعيدون جدًا .. دعك من أن مصر بلد سهل الحكم ، أهله أميل إلى قبول أى حاكم يحكمهم ، وليسوا من هواة الثورات والفتن كالعراقيين .. هكذا صارت حياة خاملة جدًا لا تناسب طبيعته المغامرة القلقة الوثابة ..

4 ـ الحمى التى أصيب بها والتى جعلت مزاجه غاية فى السوء ..

تأملت نحول ذراعه والأوردة البارزة على جبينه ، وقالت :

ـ « يبدو أن الأمر خطير .. أنت تفقد وزنك بسرعة فعلاً .. »

قال على الفور بيتًا قديمًا له كتبه وهو مراهق :

ـ « كفى بجسمى نحولاً أننى رجل

لولا مخاطبتى إياك لم ترنى .. »

ـ « يا نهار اسود !! »

قالتها فى ذعر وهى تضرب صدرها .. لولا أنه يتكلم لما رأته !.. معنى هذا أنه موشك على الانتهاء ..

ذهبت (عبير) خارج القصر تبحث عن طبيب .. هداها الناس إلى بيت قريب عليه لافتة تقول (د. محمد بن أبى بكر بن الصاوى ـ نطاسى مختص بأمراض الصفراء والقيلة واعتلال المزاج ـ حاصل على شهادة جالينوس) ..

دخلت إلى الطبيب وطلبت منه أن يأتى معها إلى القصر ، حيث ضيف (كافور) مريض جدًا .. حمل حقيبته ولحق بها متوقعًا أجرًا ممتازًا طبعًا ..

على الأرض جلس د. (محمد) مع المتنبى ، وقاس نبضه ثم فتح عينه وجسه ..

قال بعد تدقيق :

ـ « لا أرى أنك مصاب بشىء .. »

قال المتنبى وهو يجفف العرق على جبينه :

ـ « أيها النطاسى .. الحمى لا تظهر إلا ليلاً .. حمى وآلام عظام .. »

ثم أنشد أول شعر أعراض Symptomatology يعرفه الأدب العربى ، وربما آخره كذلك ، وهو دقيق جدًا كالعادة :

ـ « وزائرتى كأن بها حياء
فليس تزور إلا فى الظلام
فرشت لها المطارف والحشايا
فعافتها ونامت فى عظامى
يضيق الجلد .. عن نفسى وعنها

فتوســـعه بأنـواع الســـقام

كأن الصبح يطردها فتجرى

مدامعهـا بأربعـة سـجام »

قال الطبيب مفكرًا ، وهو يعتصر لحيته :

- « هم م .. حمى لا تأتى إلا ليلاً .. تشعر بالبرد وتغطى نفسـك ، لكنها لا تهدأ .. وتشعر بألم فى عظامك .. همم !.. ثم تختفـى مـع طلوع الصباح .. »

هنا تدخلت (عبير) مقاطعة :

- « يقول لـك يـا دكتـور إن مدامعهـا تجـرى بأربعـة سـجام .. يبدو لى أن هذا الكلام خطير ! »

- « ليست سوى صورة بلاغية جميلة .. الشاعر تخيل أن الحمى حبيبة رقيقة لا تريد فراقه ، لذا تبكى بحرارة فيسيل دمعها من أربعـة مجار .. لكل عين ركنان يسيل منهما الدمع .. كل ركن هو (سجم) .. »

كان فى ورطة .. إن وصف المتنبى للمرض دقيق جدًا ، وحتى اليوم يرى أكثر الأطباء أنه يصف (البرداء) أو (الملاريا) وهـى داء متوطن فى مصر وقتها ، بينمـا يرى آخرون أنـه يصف الحمـى المالطية (البروسلا) .. حمى ليلية مزمنة مع ألم فى العظام ..

قال الطبيب (الأحمق طبعًا) للمتنبى :

ـ « لابد أنك أكلت شيئًا سبب هذه الحالة .. »

نظر المتنبى لعبير وتنهد ، وقال :

ـ « يقول لى الطبيب أكلت شيئا

وداؤك فى شرابك والطعـــام

ومـا فى طبـــه أنـى جـــواد

أضرّ بجســمه طــول الجمـام »

يقصد أن حالته نفسية .. قلة الحركة ورتابة الحياة هى سبب مرضه .. بالطبع لا يؤمن الأطباء بهذا ..

على كل حال أخرج الطبيب أخلاطًا عجيبة من حقيبته وأوصى المتنبى بشربها .. هذه الأخلاط تصلح لكل شىء من المغص حتى التهاب الزائدة وحتى حصوة المثانة وسرطان البروستاتا ..

عندما غادر المكان أمسك المتنبى بالزجاجات كلها وسكبها على الأرض ..

ـ « يقول لى إننى أكلت شيئًا ..!.. بالطبع أكلت أشياء .. هل يحسبنى مضربًا عن الطعام ؟.. إن حماقة هذا الرجل لا شك فيها .. »

* * *

نحن الآن فى أول ذى الحجـة ، وعلامات اقتـراب عيد الأضحى فى كل مكان .. أبسطها ثغاء الخراف فى الشوارع ..

فوجئت بالمتنبى يجمـع حاجياتـه وأشـياءه فـى ذات الصنـاديق التى جاء بها من عند سيف الدولة ..

- « ماذا هنالك ؟ »

قال دون أن ينظر لها :

- « سأعود إلى الشـام طبعًا .. سئمت مصر ، وهذا الأحمق الـذى لا يعرف مكانتى .. »

ثم سألها بشكل عارض :

- « هل تأتين معى ؟ »

- « مهمتى ألا أفارقك .. »

- « إذن اجمعى المتاع إلى أن أقابل (كافور) .. »

هكذا ظلت وحدها فى جناحه تجمع حاجياته .. كل العطايا التى نالها من شعره ..

لقد أحسن استخدام شعره فعلاً .. إنه يفتقر للمثاليـة الأخلاقيـة لكنه شاعر عظيم .. لا أحد ينكر هـذا .. وتذكرت كلمـة (أفلاطـون) القديمةعن أن العباقرة غالبًا مـا يكونـون واهنين أخلاقيًّا .. أنـانيين وربما كانوا أشرارًا كذلك ..

هذا الطيلسان .. هذه العبـاءة .. تلك العمامة .. هذا الخنجر اليمنى المذهب ..

لكنه لم يعد بالشىء الوحيد الذى أراده فعلاً : الولايـة .. أن يحكم .. أن يأتى له الشعراء فى مجلسه ليلقوا الشعر وهـو يلقى لهـم الدنـانير ، والأهـم أن يعرف سيف الدولـة بهـذا .. الآن لـن يعرف سيف الدولة سوى أن المتنبى لم ينل أى شىء عند كـافور وعاد يجر أذيال الخيبة ..

لـم تـر المقابلـة ولـم تحضرهـا .. لكنهـا عرفـت أخبارهـا ممـن شهدوها .. وعرفت أنها كانت كارثية ..

لقد كان رفض كافور لرحيل المتنبى قاطعًا ..

كافور الأستاذ ذكى وحكيم ، لكنه يحتفظ بغرور الحكام الشـرقيين : لا أحد يتركنى إذا أراد .. أنا أطرد الناس لكن لا يفارقنى أحد .. هكذا سوف يبقى المتنبى عندى ، أراد أو لم يرد .. سيبقى حتى أطرده أنـا .. لن يقال إنه ترك مصر و(كافور) ؛ لأنه لم يلق تكريمًا هناك ..

كان كلام المتنبى حادًا ، ولابد أن لسانه انزلق مرارًا ..

فـى النهايـة اقتحـم جناحـه حيث كـانت عبـير مـا زالـت ترتـب حاجياته ، فركل الصندوق الذى أغلقته ليتنـاثر مـا فيـه ، وهتـف مغضبًا :

- « الوغد لا يسمح لى بالرحيل !.. أنا سجين هنا ! »

- « إذن هو متمسك بك ! »

- « بل الغرض هو إذلالى .. لكن لا أحد يقدر على إذلال المتنبى أبـدًا .. »

كادت تقول شيئًا ، لكنه أمسك بمعصمها بقسوة ، ورأت الغضب عارمًا فى عينيه .. ثم استجمع أنفاسه فقال :

- « سوف أهرب من كافور .. سأهرب من مصر كلها ! »

* * *

7ـ هروب عند الفجر ..

صاح صائح :

ـ « اتركوا ابنه (محسد) ! »

لكن صائحًا آخر قال :

ـ « بل يموت معه ! »

وسرعان ما سقط (محسد) ، ورأت (عبير) (فاتك) يصرخ صرخة عظيمة ويندفع نحوها ملوحًا بسيفه .. أغمضت عينها وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة ..

* * *

تعالى صوت التكبيرات يوم عيد الأضحى ..

« الله اكبر .. الله اكبر .. لا إله إلا الله .. ولا نعبد إلا إياه ..

« الله اكبر كبيرًا .. والحمد لله كثيرًا ..

« وسبحان الله بكرة وأصيلا .. »

جو الفجر الأزرق النقى البارد الندى ...

من الغريب أن هذا الجو يقترن برائحة الخراف وثغائها من بعيد فى جو فريد لا يعرفه إلا عيد الأضحى ..

قال لها (المتنبى) وقد غطى نصف وجهه بلثام ، وجمع أهم أشيائه فى صندوق :

- « يمكنك القيام بدورك .. »

اتجهت (عبير) إلى خارج الجناح حيث كان ثلاثة الحراس واقفين وقد أوشك النعاس على أن يغلبهم تمامًا .. أخرجت جهاز التسجيل وقالت بطريقة مرحة عملية جدًا :

- « معذرة .. أريد أن أسألكم عن بعض الأشياء .. كيف يحتفل أهل مصر فى عصركم بعيد الأضحى ؟.. هذه نقاط مهمة للتحقيق الصحفى .. فى عصرى كنا نغنى (العيد فرحة) .. ويبتاع الأطفال البالونات ويخرجون إلى الحدائق العامة .. ربما يذهبون إلى حديقة الحيوان ليضايقوا الأسود ، ويسمموا فرس النهر ، ويدفعوا القردة إلى الانتحار .. لكن ماذا عنكم أنتم ؟ »

ثم هتفت - وقد تذكرت - :

- « هل هناك حراس فى الخارج ؟.. هاتوهم من فضلكم .. أريد سماع رأى الجميع .. »

هكذا لحق بها ثلاثة آخرون ...

تطوع حارس بدين بأن يشرح لها ما يقومون به .. إنهم يتسلون بتبادل الصفعات والركلات .. هذا أجمل شىء .. متعة حقيقية .. كان يحكى هذا بينما انهمك الآخرون فى تأمل سحرها وجمالها ..

يمكنها أن ترى بعين الخيال المتنبى وهو يفتح الشرفة ، ثم يثب منها ـ وهو ارتفاع بسيط ـ إلى الأرض ، ثم يتسلل ليتسلق نطاق الأشجار والسور إلى حيث ينتظره جوادان سريعان ...

هى مشاركة فى عملية الهرب ، ولو عرف كافور لفتك بها لكنها كانت تعرف أنها ستلحق بالشاعر العراقى العبقرى المتمرد .. لن تبقى هنا ...

« لا إله إلا الله ..

« ولا نعبد إلا إياه .. »

انتهت من تسجيل الحوار والتقاط بعض الصور ، ثم شكرتهم بحرارة ..

ـ « لا تنسوا قراءة هذا الحوار بعد ألف سنة من الآن .. »

قال الحارس البدين :

- « هذا رائع !.. سوف أبتاع عشرة أعداد من هذه الجريدة .. سوف تسعد حماتى كثيرًا عندما ترى صورتى .. »

ثنت (عبير) ركبتيها فى رشاقة ثم اتجهت إلى الخارج .. طبعًا هى غير سجينة ، ومن حقها أن تخرج وتعود متى أرادت ..

هكذا غادرت القصر .. دارت بسرعة حوله ، عندها سمعت حوافر الخيول ..

رأت المتنبى قادمًا على صهوة جواده ، وقد جر الحصان الثانى من خلفه ، فدعاها للركوب بسرعة .. لا وقت للانتظار ...

وثبت على ظهر الحصان وضربته بكعبيها ليركض ، وانطلقت تلحق بالشاعر الكبير .. فى ذات اللحظة سمعت من يصرخ من داخل القصر :

- « المتنبى هرب !! »

لكنها لم تسمع الباقى لأن الحصانين كانا يركضان الآن بأقصى سرعة ..

بينما يدوى الصوت من كل المساجد تقريبًا :

- « الصلاة جامعة !.. صلاة عيد الاضحى اثابكم الله ! »

لابد أن الفرار من الفسطاط استغرق ساعتين ، لأن الشمس كانت قد علت .. وسخنت الموجودات ، وهناك فى الصحراء يجلس المتنبى على الرمال جوارها بينما الجوادان يلتقطان الأنفاس اللاهثة وقد أغرقها العرق ..

كان يهمس بأشياء وعيناه مغمضتان فأدركت أن شيطان الشعر يزوره الآن ..

فضلت الصمت لأنه يصير عصبيًا جدًّا فى لحظات كهذه ..

لما انتهى قال لها وهو يجفف عرقه :

ـ « لقد انتهى الأمر .. خلدت (كافور) للأبد !.. هذه الأبيات سوف يذكرها الناس طويلاً جدًّا .. اسمعى :

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيدًا دونها بيد »

قالت ضاحكة :

ـ « هذا مقطع شهير جدًّا .. فعلاً هو من أخلد الشعر .. لكن أين كافور فى الموضوع ؟ »

كور أنامله على شكل قمع بمعنى (انتظرى) ، وواصل الإنشاد :

ـ « إنى نزلت بكذابين ضيفهم

عن القرى وعن الترحال محدود

ما يقبض الموت نفسًا من نفوسهم

إلا وفى يده من نتنها عود »

قالت فى شىء من الحرج :

- « هأنتذا قد بدأت فى قلة الأدب ! »

لكنه لم يعلق وواصل الهجاء :

- « أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه .. فله فى مصر تمهيد ؟
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فقد بشمن وما تفنى العناقيد »

قالت مقاطعة :

- « هذا خطأ .. كافور لم يقتل سيده .. »

على كل حال هذا بيت شعر شهير جدًا ويصلح لكل عصر .. النواطير : جمع ناطور ، وهو حافظ الزرع. غفل الملوك عن مصر وأهملوها فتمكن منها العبيد والأرذال ، فجمعوا الأموال وأتخموا من كثرتها .. مسكينة مصر التى تسرق بلا توقف منذ عصر المتنبى حتى عصر (بقرة حاحا) قصيدة (نجم) الشهيرة ..

ويواصل المتنبى قصيدته العنيفة فائقة الشهرة :

- « لا تشتر العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن
يسيء بى فيه عبد وهو محمود

وأن ذا الأسـود المثقـوب مشفره

تطيعه ذى العضاريط الرعاديد .. »

الأسود المثقوب مشـفره هـو كافـور طبعًا ، الذى ثقبت شـفته السفلى كدأب الزنوج ، والعضاريط جمع عضروط ، وهو الخـادم الذى يعمل من أجل طعام بطنه ..

هكذا أطلق المتنبى كل صديـد نفسـه وكـل مـا ادخـره مـن حقـد على كافور ليفجره فى لحظات .. بدا هذا الشعر لـ (عبير) قاسيًا جدًا على كافور وعلى مصر كلها .. فيـه نزعـة عنصريـة لا شـك فيها واحتقار للون الأسود شديد .. كافور بالنسبة له مجـرد عبـد أسـود يجب أن يعـاقب ويضـرب بالعصـا .. لاحـظ أننـا لـم نذكـر الأبيات البذيئة فى القصيدة ..

الحق أن شعورها نحو المتنبى متناقض ..

انبهار بموهبته ..

دهشة من غروره ..

ذعر من طموحه ..

خوف من أنانيته وقلة أدبه أحيانًا ..

عدم فهم لما يريده بالضبط ...

لقد انتهت الحقبـة المصرية من حيـاة المتنبى ، وحان الوقـت ليبدأ فصل جديد ...

* * *

8ـ الشام من جديد ..

نظر المتنبى فى غيظ للغلام .. لو كان الوقت مناسبًا لجلده ، لكن لا وقت لهذا .. لذا تقدم بالحصان ليواجه الجمع ..

الحق أنه كان شجاعًا لا شك فى هذا .. وكان فارسًا .. إنه التناقضات فى ثياب إنسان .. .

* * *

لم يكف المتنبى طيلة الرحلة إلى الشرق ـ ثلاثة أشهر ـ عن نظم أشعار تسب (كافور) حتى شعرت (عبير) أن الأخير يوشك أن يتحول إلى بخار نووى ..

يقول لها عن (كافور) :

ـ « يستخشن الخزّ حين يلبسه

وكان يبرى بظفره القلم »

يقول إن الرجل صار يجد الثياب الناعمة خشنة على بشرته ، برغم أنه حينما كان عبدًا كانت أظفاره غليظة لدرجة أنها تبرى القلم .. عبير شهدت مشاجرات كثيرة فى الحارة شبيهة بهذا ، من طراز (كنتم تحسبون اللحم دهانًا للرأس) أو (فليرحم الله

ماضيكم يا من كنتم لا تعرفون الكشرى عندما ترونه) .. فقط يقولها المتنبى ببلاغة وجمال ..

كان هذا طريفًا .. أن تهرب من مصر وأن تترصدك الأخطار فى كل صوب ، وأن يتهددك فى كل لحظة خطر أن يقبض عليك الحراس وتُساق إلى كافور من جديد ، وبرغم هذا أنت لا تكف عن نظم الأشعار :

ـ « لِتَعلَمَ مصر وَمَن بِالعِراقِ
وَمَـن بالعواصـم أنّى الفتى
وَأنّى وَفيـتُ وأنى أبَيـتُ
وَأنّى عتـوت عَلى مَن عَتَا
وَماذا بمصر مِنَ المضحكات
ولَكِنّـهُ ضـحك كَالبُكـا »

هتفت عبير فى مرح كأنها اكتشفت شيئًا جديدًا :

ـ « هذا البيت الأخير : وماذا بمصر من المضحكات .. شهير جدًا .. ومن الغريب أنه ما زال صالحًا . لو تقاضيت قرشًا عن حق الأداء العلنى لكل مرة يستخدم فيها لصرت مليونيرًا .. »

لكن المتنبى لم يكن يصغى .. كان يواصل السباب المقفى الموزون :

- « وَأَسودُ مشفره نِصفُهُ
يُقالُ لَهُ أَنتَ بَدرُ الدُجى

من جديد لا يكف عن العنصرية .. شفة كافور السفلى ضخمة تبلغ نصف حجمه ، وبرغم هذا ينافقه الشعراء قائلين إنه بدر الظلام ..

قالت (عبير) فى غيظ :

- « لاحظ أنك مدحته كثيرًا جدًّا .. لا تقل لى إنك لم تكن ترى مشفره هذا وإنك اكتشفته فجأة .. »

قال على الفور :

- « وشعر مَدَحتُ بِهِ الكَركَدَنَّ
بَينَ القريض وبين الرُقى
فَما كانَ ذَلِكَ مَدحًا لَهُ
ولكِنَّهُ كانَ هَجوَ الوَرى »

أولاً : كافور هو الكركدن .. أى هو خرتيت آدمى .. ثانيًا : شعر المدح لم يكن مدحًا ، بل كان نوعًا من الرقى ضد جنون الرجل .. لم يكن مدحًا لكافور لكنه شتيمة للناس الذين اضطروا المتنبى

لمدح أمثال كافور .. أى إن كل بيت شعر مدح به (كافور) هو فى الحقيقة لوم للمجتمع .. إن الشاعر لن يعترف أبدًا بأنه أخطأ ، ولن يغلبه فى الكلام أحد لأنه جاهز بالمنطق الملتوى فى أية لحظة ..

قالت له متعمدة إغاظته :

ـ « هناك بيت من الشعر لك يقول :

« وإذا ما خـلا الجبـان بأرض

« طلب الطعن وحده والنزالا ..

« ألا ترى أنك تمارس بالضـبط مـا وصفتـه فـى هذا البيت ؟ أنت تحارب حربًا ليس فيها خصم سواك ، وهأنتذا تطعـن وتبـارز وتكر وتفر .. »

قلص وجهه فى استسخاف ، وقال :

ـ « ظريفة وذكية كذلك ؟.. ما شاء الله ! »

الحقيقة كما قال طه حسين : المتنبى فى قصته مع كافور كلهـا صغير حقًا.. صغير حين مدح ، وصغير حين هجا ، وصغير حيـن رضى ، وصغير حين غضب ، ولكن صغره هذا لا يمنعـه مـن أن يهجو فيجيد ، ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد ..

هما الآن يدنوان مـن الشـام .. لقد فر المتنبى من مصر ولـن يعود لها أبدًا ..

ربما فكر فى الاتجاه غربًا ليعيش عند الفاطميين فى المغرب ، لكن هذا يعقد الأمور أكثر لأنه يبعده عن أحلامه بالعراق والشام .. فى كل مرة سيكون عليه أن يمر على كافور !

* * *

مِن أيَّةِ الطرق يَأتى نحوك الكَرَمُ ؟

أينَ المحاجم يا كافورُ وَالجَلَمُ ؟

ساداتُ كل أناس مِن نفوسهم

وَسَادَةُ المسلمين الأَعبُدُ القَزَمُ

أغايَةُ الدين أن تُحفوا شَوارِبَكم

يا أُمَّةً ضحكت مِن جهلها الأُمَمُ ؟

ما أقدَرَ الله أن يُخزى خليقته

وَلا يُصَدِّقُ قَومًا فى الَّذى زَعَموا

إهانات .. إهانات .. لا تنتهى .

على كافور أن يأتى بالمحاجم والمقصات (الجلم) وهى عدة الحلاقين فى ذلك العصر ، ليمارس عمله الطبيعى الذى خلق له : الحلاقة ..

بل إن هذه الإهانات تتجاوز كافور الإخشيدى إلى أهل مصر أنفسهم .. سخرية من عادتهم فى حفّ الشوارب معتبرين هذا جزءًا مهمًا من التدين .. إنهم ارتضوا أن يكون سيدهم قزمًا عبدًا .. وكافور يجلب الوبال على الإسلام لأن الملحدين يقولون : هذا هو المسلم الذى يريدون أن نكون مثله .. إذن كافور يجب أن يُقتل ، فإن لم يُقتل فالله قادر على أن يزيله من الوجود ، فتزول ادعاءات القوم ..

على كل حال نتذكر هنا قول طه حسين : « ما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونا ، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء » .

الحق إن (كافور) نال الخلود فعلاً ، ولكن على طريقة المتنبى ..

على من يغلظ فى معاملة المتنبى بعد اليوم أن يعمل له ألف حساب ...

* * *

مع المتنبى سافرت (عبير) إلى الكوفة ..

الطريق كان مزينًا بزينة من نوع خاص .. حرائق .. بيوت مهدمة .. جثث مقطوعة الرأس .. جثث مصلوبة .. رءوس مقطوعة ، لا يبدو أنها تخص تلك الأجسام ..

- « القرامطة .. نحن فى ذروة عصر فتنة القرامطة .. »

قالها كأنه يلقى معلومة عابرة .. لا تعرف تفاصيل فتنة القرامطة ، لكنها الآن تعرف ما يكفى : هم يتركون وراءهم آثار أقدام على شكل جثث .. الحق إن الدولة المركزية مهمة جدًا فى العالم الإسلامى ، ومن دونها يفسد كل شىء وتتآكل الأطراف فالقلب .. أشياء كهذه ما كانت لتحدث فى زمن قوة العصر العباسى أو الأموى ..

لكن هذا الطموح المجنون القلق لدى الشاعر لا يستقر فى موضع واحد ..

هكذا انطلق إلى بغداد ..

قالت له فى شىء من السخرية ، وهما يدخلان المدينة الكبيرة .. عاصمة العالم الثقافية وقتها :

- « ملك جديد .. وقصائد مدح جديدة .. وإحباط ، ثم قصائد هجاء بذيئة .. إن حياتك تمشى على وتيرة واحدة .. »

التقط بعض البرتقال من بائع عجوز فناولها واحدة وبدأ يقشر أخرى لنفسه ، وقال :

- « بالعكس .. الحاكم هنا هو (المهلبى) .. إنه من البويهيين .. هؤلاء هم خصوم (سيف الدولة) المعتادون .. لو امتدحتهم لكانت كارثة .. »

تذكر التقسيم الذى ذكرناه : الحمدانيون فى الشام .. البويهيون فى بغداد .. الإخشيديون فى مصر ..

ثم ناول البائع نقوده ، وأردف :

ـ « ما زلت أفكر فى (سيف الدولة) ، وأشعر أننى سأعود له يومًا .. معنى مدح (المهلبى) أن أقطع جسورى نهائيًا .. »

ـ « إذن لماذا تزوره ؟ »

ـ « لأنه لابد من ملك أو حاكم أكون فى كنفه .. أنا بحاجة للطعام لو لاحظت هذا .. »

وقذف باقى البرتقالة لفمه ليريها معنى كلماته ..

كان جو قصر (المهلبى) كارثة حقيقية ..لهذا ارتبط اسم (المهلبى) فى ذهنها بأسماء الأشرار فى الأفلام العربية ..

راحت (عبير) تبحث حولها عن مفتش الرقابة على المصنفات الفنية فلم تجد ..

هذا الجو من الخلاعة والمجون لم تره من قبل إلا فى الأفلام الدينية التى تصور حياة الجاهلية ، وعندما زارت الأبيقوريين فى رحلتها مع الفلسفة ..

راقصات خليعات فى كل مكان ، والخمر تسيل أنهارًا .. ضحكات ماجنة .. فجور .. تجديف ..

هنا كل شىء مما يودى بالمرء إلى جهنم .. ثم إنه جو لا يناسب أنثى على الإطلاق .. أعنى أنثى غير مغنية ولا راقصة ..

الغريب أنه جو لم يناسب المتنبى كذلك ..

من جديد وللمرة الألف تكتشف أن هؤلاء الطموحين لا يميلون للهو بتاتًا .. كأنهم رصاصة انطلقت نحو هدفها لا تحيد ..

المتنبى يريد السلطة والنفوذ والصيت ، فلا وقت لديه يضيعه مع هؤلاء السكارى الذين ذهبت الخمر بوعيهم ولم يعودوا يعون قولاً ..

كان يمقت الخمر بجنون ؛ لأنها تذهب بالعقل وتلوى اللسان ، وهو لا يواجه الدنيا إلا بسلاح واحد هو عقله ولسانه .. لقد جلب له الساقى كأسًا فسكبها على الفور ، وقال :

إذا ما الكأس أرعشت اليدين

صحوت .. فلم تحل بينى وبينى

وهو تعبير ذكى .. الخمر تحول بين المرء وبينه ..

هكذا كان يدخل مجلس (المهلبى) ، و(عبير) تركض فى أثره كدجاجة مذعورة ..

يجلس فيرحب به الحاكم ..

يصمت ..

لا يقول حرفًا مهما قالوا أمامه ومهما تحدوه فى الشعر .. فقط يبتسم ابتسامة صفراء ويظل صامتًا يراقب كل هذا فى شىء من التعالى ...

فقط قال ذات مرة بيت الشعر الذى يعتبر دستور البرود :

وأَتْعَبُ مَن ناداك من لا تُجيبه

وأغيظُ مَن عاداك مَن لا تُشاكل

إذا أردت أن تتعب خصمك فلا تشاكله ، وإذا أردت أن تتعب من يناديك فلا تجبه .. هكذا تجعله يغلى ويلتهم أذنه لو استطاع بلوغها ..

لابد أن الوصول لهذه الفلسفة أتعبه حقًّا وهو العصبى طويل اللسان ، لكنه كان عبقريًّا فى العثور على طرق الاستفزاز لخصومه .. فيما مضى كان يرد بعبارات موجعة ، واليوم يصمت ..

طال بقاؤه سبعة أشهر فى بغداد ..

وفى النهاية رأت (عبير) المشهد المعتاد : المتنبى يجمع حاجياته فى صناديق .. يأمر خدمه بإعداد الخيول .. لقد صار هذا مملاً .

الرجل يطارد حلمًا .. وهذا الحلم يجرى بسرعة لا توصف ، من الكوفة إلى مصر إلى بغداد إلى .....

لقد انتهى الجزء الخاص ببغداد من حياته ..

9ـ ما أنصف القوم ضبة ..

هنا بدا الطريق مسدودًا ..

لقد كان هناك مجموعة من الفرسان ـ نحو الخمسين ـ يسدون الطريق .. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم .. بعضهم على سرج جواده ، وبعضهم يجلس على الأرض يلمع نصل سيفه ، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى لا تتخشب ..

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان ..

* * *

ارتحل المتنبى إلى شيراز ليكون مع (عضد الدولة ابن بويه الديلمى) ...

الحقيقة أن اختياره لشيراز لغز ، فهو لم يكن يميل للفرس بحال . ربما كان السبب هو إظهار ضيقه من العرب الذين لم يظفر منهم بما أراد .. وربما لأنه أراد أن يصل إلى بغداد ..

هناك كتب المتنبى عن (ضبة بن يزيد) ـ وهو من القرامطة ـ أبياتًا من الشعر فى غاية البذاءة ، مطلعها :

مَا أنْصَفَ القوم ضبَّةْ
وَأُمَهُ الطُّـرْطُبَّـــهْ
وَإنّمَـا قُلْـتُ ما قُلْت
رحمـــة لا مَحَبّـــهْ
رَمَـوا برأس أبيـهِ
وَباكَـوا الأمَّ غُلبَـه

معذرة !.. لا أجرؤ على الشرح ، كما لا يمكننى استكمال أبيات القصيدة .. فقط لنعرف أنه يسخر من الأم والأب سخرية فاحشة فعلاً ..

فى زمن يفهم فيه كل الناس الشعر ، وفى زمن تنتقل فيه أبيات الشعر مع القوافل كأنها الموجات الفضائية ، وفى زمن لا شرطة فيه .. يجب على المرء أن يحذر فيما يقول ، وهو ما لم يفعله المتنبى ..

(ضبة) من القرامطة وهم قوم شديدو الخطر .. كما يقولون فى أفلام المافيا :

Nobody messes with the mob أى (لا أحد يعبث مع المافيا) ، فإن العبث مع القرامطة لعبة خطرة جدًا ..

(فاتك بن أبى جهل الأسدى) .. هل سمعت هذا الاسم ؟.. مخيف .. أليس كذلك ؟.. هل يمكنك أن تتخيل صاحبه ؟.. جميل جدًّا ..

(فاتك) كان يشرب الخمر عندما جاءه بعض الرجال المتقعين فى الحانة ، ودنا منه أحدهم ليهمس فى أذنه :

ـ « المتنبى .. »

ـ « ماله ؟ »

ـ « قال شعرًا فى ابن أختك .. وفى .. فى أختك كذلك .. »

صاح بصوت كالرعد :

ـ « قله ! »

ـ « لا أستطيع .. »

بيده الغليظة اعتصر (فاتك) عنقه وأخرج خنجرًا بحجم السيف ، وسيفًا بحجم الصاروخ العابر للقارات ووضعه على أوردته .. سوف يذبحه ذبحًا إن لم يقل ما يعرف ..

قال الرجل وهو يوشك على البكاء :

ـ « مَا أنْصَفَ القَوْمُ ضَبّهْ
وأُمّهُ الطُّرْطُبّهْ .. »

صرخ (فاتك) صرخة ارتجت لها جدران الحانة ، وهتف :

ـ « طُرطُبَة ؟.. أختى أنا طُرطُبَة ؟ »

ـ « ما بقى أسوأ .. »

وأنشد بقية الأبيات .. هنا كان (فاتك) قد قرر أن يبدأ ليلته بالذبح ، ويبدأ ضحاياه بهذا المسكين الواقع فى قبضته ، لكن الرجال أقنعوه أن يهدأ .. ما على الرسول إلا البلاغ ..

نهض (فاتك) ومسح فمه بظهر يده ، وهتف :

ـ « نعم .. المتنبى !.. أريد هذا الوغد !! »

* * *

كانت (عبير) مع المتنبى فى أصفهان فى ضيافة (أبو العباس الصاحب بن عباد) .. لقد ذهب المتنبى هناك مع ابنه الوحيد (محشد) وغلامه (مفلح) .. (مفلح) الخادم المثقف الذى يرفض أن يعامل كخادم ، وهو يحفظ من الشعر أضعاف ما يحفظ (المتنبى) و(أبو العلاء) و(أبو تمام) معًا ..

كان مطلب (العباس) بسيطًا وغريبًا فى الوقت ذاته :

ـ « امدحنى ! »

نعم .. قواعد اللعبة معروفة ، لكنها لا تلعب بهذه البساطة ولا أحد يكشف أوراقه بهذه الطريقة ، وإلا فسد الأمر كله وبدا عبثيًا ..

لكن المتنبى بدا ميالاً للتسلية ، لذا مال على المنضدة سائلاً :

- « كم ؟ »

- « سأجزل لك العطاء .. نصف ثروتى .. »

لابد أن هذا أعلى سعر فى التاريخ عرض على شاعر لأجل قصيدة مدح ، لكن المتنبى كان زاهدًا فى هذا كله ، ليس لأنه يمقت المال ، بل لأنه يرغب بشدة فى شىء آخر : السلطة ..

فيما بعد سألته عبير عن سبب هذا التمنُّع ، فقال :

- « لو كنت جائعة ظامئة فى الصحراء ، ووجدت كيسًا مليئًا بالدنانير فماذا تفعلين ؟.. تتركينها طبعًا .. لا جدوى منها .. »

لكن هذا الرفض المتكرر لقول الشعر أورث (أبو العباس) حقدًا شديدًا على المتنبى ..

وفى النهاية ودع المتنبى الرجل عازمًا على العودة إلى بغداد ، فكان الفراق باردًا فعلاً...

وداعًا شيراز ..

أنت كغيرك من البلدان لم تمنحى المتنبى شيئًا ولن يفتقدك أبدًا ..

وعلى باب المدينة قال واحدًا من أروع أبياته الشعرية وأقواها :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى

فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام

تكسرت النصال على النصال

السهام ملأت قلبه حتى لم يعد هناك مكان عليه يمكن أن يمر منه سهم جديد ، وهو ما يعنى كذلك أن كثرة المعاناة علمته الصبر فلم يعد من شىء قادرًا على إضافة جرح جديد له .. طه حسين يجد هذين البيتين سخيفين ، على كل حال ليس فيهما جديد ...

هكذا يرحل ـ المتنبى لا طه حسين ـ ومعه (عبير) وابنه وغلامه .. لم يتوقع أن ما خلَفه وراءه من أحقاد يمكن أن يتحالف ضده ..

فى هذا الوقت تم الاتصال سرًّا بين (أبو العباس) وخصم لدود للمتنبى .. إن الرجل فى الطريق قربكم .. لو لم تغتنموا الفرصة فقد لا تعود أبدًا ..

* * *

فوجئ صديق المتنبى فى (واسط) (أبو نصر بن محمد الجبلى) بزيارة من رجل مرعب ضخم الجثة ..

قال له مقدمًا بطاقته :

- « أنا (فاتك الأسدى) .. »

- « تشرفنا .. »

نظر (فاتك) حوله بعين وقحة فضولية ، ثم سأل (أبو نصر) :

- « هل تعرف أين يوجد هذا الشاعر .. الذى يدعى .. يدعى .. أعتقد أن اسمه (المتنبى) ؟ »

- « لم تريده ؟ »

- « كل خير .. له معى مال أرجو أن أوصله له .. »

فكر (أبو نصر) قليلاً ولم يستطع أن يبتلع الرجل .. ليست هذه نظرات رجل أمين يريد إعادة مال لصاحبه ، بل هى نظرات سفاح .. هكذا قال بعد تفكير :

- « فى الحقيقة .. لم أره منذ عام .. »

نظر له (فاتك) بعينين تثقبان الحجر كأنما يتأكد من صدقه ، ثم تهيأ للرحيل مع رجاله المرعبين مثله ، هنا سأله (أبو نصر) كأنما خطرت له فكرة ما :

ـ « هل أنت من القرامطة ؟ »

ـ « نعم .. »

الاسم المرعب يتردد من جديد .. القرامطـة بتنظيمهـم السـرى الشبيه بالمافيا ، وذبحهم للحجـاج وقطـع الطـرق .. لكـن السـؤال الأهم هو :

ـ « هل أنت قريب (ضبة بن يزيد) ؟ »

قال (فاتك) فى بساطة :

ـ « أنا خاله !.. هيا بنا يا رجال .. »

وابتعد القـوم والأرض ترتج ارتجاجًا تحـت أقدامهـم الغليظة .. صوت سيوفهم تقعقع فى قرابها .. يجب أن يعرف المتنبـى بـأمر هذه الزيارة .. يجب ...

* * *

كان المتنبى الآن فى بداية الرحلة ، عندما ظهر فارس على جـواد يركض مسرعًا .. لما دنا أكثر عرف المتنبى فيه صديقًا له ..

ترجل الفارس لاهثًا وراح يجفف عرقه ، فقـال المتنبـى يقدمـه لعبير :

- « (عبير عبد الرحمن) صحفية .. (أبو نصر بن محمد الجبلى) .. صديقى .. »

قال الفارس فى ضجر من لا وقت عنده لهذا الهراء ، ودون أن ينظر لها :

- « تشرفنا .. »

ثم استدار للمتنبى ، وصاح فى ذعر :

- « هذه الفلاة خطرة .. أعداؤك كثيرون .. (فاتك الأسدى) خال (ضبة) يبحث عنك ، وهو بالتأكيد لايريد دعوتك على العشاء .. لقد رتبت أن يصحبك عشرون فارسًا فى رحلتك لحمايتك .. »

قال المتنبى فى خفة :

- « ولم لا ترسل مائتين ؟.. يا صاحبى ليس الأمر بهذه الخطورة .. »

- « أعتقد أنه كذلك .. »

- « إن معى سيفى وابنى وخادمى .. هذا أكثر من كاف .. »

قال (أبو نصر) :

- « ألم تقل فى شعرك :

« الرأى قبل شجاعة الشجعانِ

هو أول ، وهى المحل الثانى ؟ »

ـ « بلى .. »

هنا تدخل غلام المتنبى وهو ـ كما قلنا ـ فتى ثرثار مثقف جدًا وكثير التدخل فيما لا يعنيه :

ـ « معنى هذا البيت أن العقل أهم من الشجاعة .. ويجب الأخذ به قبل كل شىء .. فلماذا لا تنفذ ما تؤمن به ؟ »

قال المتنبى فى غيظ ، وهو ينظر للخادم نظرة كارهة :

ـ « أحيانًا يقول الشعراء كلامًا لا يؤمنون به تمامًا .. أحيانًا ترغمهم شياطين الشعر أو يرغمهم تدفق الكلمات والقوافى على قولِ ما لا يريدون .. وهناك بيت آخر لى يقول :

يرى الجبناء أن العجز عقلٌ

و تلك خصائص الطبع اللئيم

وأنا لست جبانًا ولا أعتبر العجز عقلاً .. والآن اخرس. .. »

لكن (عبير) عرفت الإجابة .. إنه موعد مع قدره لا يريد أن يخلفه أو يؤخره ..

همس الغلام لها :

- « تفكرين فيما أفكر فيه ؟.. إنها دراما إغريقية ! »

نظرت له فى دهشة لأنه قرأ أفكارها .. دراما إغريقية فعلاً .. كأن الرجل قرأ قصة حياته وقرر أن ينفذها حرفيًا .. لا يريد أية أخطاء أو تأخير فى المواعيد ..

وبالفعل ودع المتنبى صديقه شاكرًا ، وانطلق مع رفاقه ..

* * *

10ـ أنياب الليث ..

نحن الآن غرب بغداد .. منطقة (دير العاقول)..

العام هو 354 هـ ..

هناك مدرعة أمريكية تحترق إلى جوار الطريق ، وهو هذا الخلط المعتاد من فانتازيا ، لكن (عبير) خطر لها أن هذا البلد لم ينعم بالهدوء قط فى حياته الطويلة .. وما أشعله القرامطة فى ذلك العصر ، أشعلته صواريخ (كروز) فى عصرنا هذا .. متى يكون العراق آمنًا وينعم بثروته ومستحقات تاريخه العريق العظيم ؟

هنا بدا الطريق مسدودًا ..

لقد كانت هناك مجموعة من الفرسان ـ نحو الخمسين ـ يسدون الطريق .. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم .. بعضهم على سرج جواده ، وبعضهم يجلس على الأرض يلمع نصل سيفه ، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى لا تتخشب ..

هؤلاء جاءوا من أجلى ...

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان ..

الآن يراه بوضوح تام .. هذا الجسد الضخم واللحية المنتفشة والنظرات النارية .. إنه (فاتك بن أبى جهل الأسدى) .. هو

بعينه .. بقوته وشراسته .. والأسوأ أنـه غـاضب .. لكنـه يكشر عن أنيابه فى شبه ابتسامة ..

* * *

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً

فلا تظنـن أن الليـث يبتسـم

* * *

قالت (عبير) فى رعب وهى تعتصر رقبة جوادها :

- « ماذا نفعل ؟ »

قال المتنبى دون أن يهتز :

- « تراجعى للوراء .. لا شأن لهم بك .. الأمر بيننا .. »

قال الخادم (مفلح) متفلسفًا :

- « لا شـأن لنا بهـذه القضية .. الخدم والنساء ينجون ، بينما هم يريـدون رأس سـيدى المتنبـى لا أكـثر !.. سـوف ينتهـون بسرعة ونمر .. »

نظر المتنبى فى غيظ للغـلام .. لو كـان الوقت مناسبًا لجلـده ، لكن لا وقت لهذا .. لذا تقدضم بالحصان ليواجه الجمع ..

الحق أنه كان شجاعًا لا شك فى هذا .. وكان فارسًا .. إنه التناقضات فى ثياب إنسان ..

ولو أن الحياة تبقى لحىٍ

لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ

فمن العجز أن تكون جبانا

هذا حق .. لو كان الجبن يطيل العمر لكان الشجعان أبله البلهاء وأغبى الأغبياء ..

عيناه على عينى (فاتك) الناريتين ..

استدار (فاتك) لعبده (سراج) دون أن يبعد عينيه عن الشاعر الكبير ، وأمره :

ـ « يا غلام .. الدرع .. »

ناوله (سراج) الدرع فلفّه على صدره ـ كأنه بحاجة لحماية ـ ووضع الخوذة .. ثم تقدم نحو المتنبى وهو يلوح بسيفه .. لما صار الرجلان على بعد مترين ، قال (فاتك) :

ـ « قبحًا لهذه اللحية يا سبّاب !.. ألست القائل (الخيل والليل والبيداء تعرفنى) ؟ »

فى ثبات قال المتنبى دون أن يطرف بعينه :

ـ « أنا عند ذاك يابن اللخناء العفلاء .. »

لم تفهم (عبير) معنى هذا ، لكنها قدرت أنها سبة مهينة أو بذيئة ... بالفعل هى كذلك كما أن شرحها يحتاج إلى طبيب أمراض نساء ليعبر عن المعنى ..

وعلى الفور انطلق المتنبى يعمل سيفه فى القوم ..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله ، ومن فوقه لوّح المتنبى بسيفه وصرخ صرخة هائلة .. هوى بسيفه على عنق أحد الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان ..

وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة .. عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث ، شعر بالأرض تميد تحت أقدام الحصان ..

إن للخيول عادة ذميمة هى أنها تتعثر فى اللحظة غير المناسبة ، وقد هوى حافر الحصان فى حفرة فى الأرض فأطلق صهيلاً ، ثم تعثر ليسقط على قائمتيه الأماميتين ..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار ، وللحظة حسبت (عبير) أن رأسه طار كذلك ، ثم أدركت أنها العمامة ..

نهض المتنبى على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من دوار ..

الويل لهم .. سوف يرون ..

ثم أدرك على ما يبدو ضعف موقفه ، فأطلق ساقيه للريح ، وصاح فى جماعته :

ـ « فلنهرب ! »

ووثب على جواد (عبير) لأنها أخفهم وزنًا فجوادها يتحمل ثقل اثنين ..كانت عبير ترى هذا الرأى .. ألم يقل المتنبى ذاته :

« الرأى قبل شجاعة الشجعانِ

هو أول ، وهى المحل الثانى ؟ »

من الشجاعة أحيانًا أن تفر من الموت الأكيد ..

لكن الغلام الفيلسوف (مفلح) قال للمتنبى :

ـ « كيف تهرب يا سيدى ؟.. ألست القائل : الخيل والليل والبيداء تعرفنى .. والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟.. معنى هروبك أن يموت هذا الشعر وألا تصير لكلماتك معنى .. هناك شاعر فرنسى سيعرفه العالم بعد قرون اسمه (رانبو) .. اضطر أن يعمل نخاسًا للعبيد ، وكان الحل الشريف الذى وجده هو أن يعتزل الشعر ؛

لأنه هذا أفضل من أن يقول شيئًا ويفعل شيئًا .. لو هربت اليوم فمن الأفضل أن تهجر الشعر للأبد .. »

فيلسوف حقًّا .. والأهم أنه يعرف أى شعراء فى فرنسا سيولدون بعد قرون ..

نظر له المتنبى طويلاً ، وتمنى أن يحطم رأسه ، ثم قال من بين أسنانه :

- « قتلتنى يا هذا !.. قاتلك الله !! »

واستدار ليواجه أعداءه ...

هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحًا بسيفه ، وكان له من اسمه نصيب ..

هوى (فاتك) بسيفه على عنق المتنبى فأطاره .. سقط الشاعر الكبير على الأرض يتشحط فى دمه ، فأحاط به الفرسان يغرسون فيه رماحهم ...

صاح صائح :

- « اتركوا ابنه (محسد) ! »

لكن صائحًا آخر قال :

- « بل يموت معه ! »

وسرعان ما سقط (محسد) ، ورأت (عبير) (فـاتك) يصرخ صرخة عظيمة ويندفع نحوهـا ملوحًا بسيفه .. أغمضت عينها وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة ..

لكن الرجل توقف فى منتصف المسـافة ، وأنـزل سيفه وهتـف وهو يدور حولها بحصانه :

ـ « لا .. (فاتك) لا يفتك بالنساء .. »

قال لها (مفلح) فى حماس :

ـ « هل رأيت ؟.. النساء والخدم ينجون دائمًا !.. هذه مزيـة إلا يكون المرء مهمًا .. »

لكن (فاتك) هوى على رأسه بسيفه ، وهو يصيح :

ـ « لا .. النساء فقط .. أنا لا أستثنى الخدم ! »

إنهم يمثلون بالجثة .. يحفرون حفرة كبيرة فى الأرض يلقون فيها الجثث التى احتشد عليها الذباب وراح يخرج من الأنوف .. الفم الذى ألقى روائع الشعر العربى مغلق للأبد .. لن يفتح ثانية ..

يردمون التراب ، ثم تمشى الخيـول فوقه لتدكـه أكثر .. وتنطلق الحوافر مبتعدة ، وعبير تقف وحدهـا فى لا مكان .. لا تعرف أين تذهب .. لا تعرف ما تعتقده ..

لكنه دائمًا يأتى فى لحظات كهذه ..

هذا هو يخرج من وسط الغبار والنقع .. يمشى وسط الحر ويخترق سحاب الذباب ..

المرشد ..

- « لقد انتهت المغامرة يا (أليس) ، ولاقى المتنبى نهايته فى سن الواحدة والخمسين .. يبدو أن علينا أن نرحل .. »

وقفت لحظات تنظر إلى القبر الذى لم تعد علامة تميزه سوى حوافر الخيول .. وقالت باكية :

- « لا أعرف إن كنت أبكى عليه كعبقرى مات بالسيف ، أم أشمت فيه كشتام تلقى عقابه ؟.. هل آخذ العبرة من نهايته باعتبارها جزاء الطموح الزائد ، أم أرتجف لأن الرجل ظل يطارد حلمه حتى القبر فلم يفز به قط ؟.. غنه مأساة إغريقية كاملة .. »

- « يمكنك أن تفعلى وتشعرى بهذا كله .. الرجل خليط من كل شىء .. »

الطفل العبقرى المولع بالشعر ..

الشاب الذى يدعى النبوة ويخدع الناس ..

السجين المقهور ..

صديق سيف الدولة المعجب بمليكه ..

الصديق المطعون فى كرامته ..

المنافق المتملق لكافور ..

الهارب الغاضب على كافور ..

صديق الفرس ..

الشتام السبّاب ..

الفارس المغوار ..

كل هذا شخص واحد ..

حقًا.. هناك أشخاص يأتون الدنيا فى صخب ويفارقونها فى ضوضاء .. (طه حسين) يرى أن المتنبى جاء العالم فى فترة مليئة بالاضطرابات والتناقضات ، لذا كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكيف مع هذا العالم هو شخص ملىء بصراعات داخلية مماثلة ..

فى زمننا هذا قد يقابل المرء فتاة شرسة فظة الكلمات خشنة الطباع ، فيدرك أنها تتكيف مع عصر شرس فظ خشن ..

باختصار : المتنبى كان ابن عصره فعلاً ..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

تنظر (عبير) للقبر مرة أخيرة ثم تبتعد مع المرشد ....

* * *

أنـا الـذى نظـر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم ..

* * *

ذو العقـل يشـقى بالنعيـم بعقلـه

وأخـو الجهـالة بالشـقاوة ينعـم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يـراق على جـوانبـه الـدم

* * *

فى القصة القادمة تقابل عبير نوعًا خاصًا من الصيادين ...

الصيادين الذين ضحوا بكل شىء كى يمنحونا الصحة والحياة ..

تمت بحمد الله



روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

عبقرى آخر

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً
فلا تظنن أن الليث يبتسمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صممُ
أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ



الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



